روايات الهلال

التلميذ والدرس

مالك حداد

ترجمة: شرف الدين شكري

رواية
التلميذ والدرس

تأليف

مالك حداد

ترجمها عن الفرنسية:
شرف الدين شكري

دار الهلال
٢٠١٤

" كم أرغبُ فى الذهاب بعيدا .إلى أى مكان ، حيث لا أرى إلاّ وجوها مجهولة، تتماثل ثم تغيبُ على وقع المصادفة التى تبدر من المحطّات . كم أرغبُ فى أن يكون لى اسم آخر، أن أكون من جنسٍ مغاير، أن أُغيّر لون ذاكرتى وأوهامي. من يعلم، فربَّما عند نهاية الطّريق، سوف يكون ليَ الحظُّ فى الظَّفر بامرأة تكون بانتظاري، وأجدها جميلة؟.."

مالك حداد: التلميذ والدرس

" إن حنيني كان ولا يزال دوما، حنين يتيمٍ إلى قراء يقرؤون لي باللغة العربية التي كنت أود أن أعبِّر من خلالها... لغة أجدادي العرب. وسيظل هذا الحنين مرافقا لي حتى تتحقق أمنيتي."

مالك حداد: الحرية و مأساة التعبير

إهداء

إلى هندام روحي ... سيسي

إلى ثمـــار وجـــودى ... أيمن جـــبـــران... مـى حنين.. ويارا السعيدة...

إلى مالك حداد... روحا من قبس النور الذى أستظل تحته كلما عجزت عن فهم طلاسم هذا الكون...

شكري. ش

كلمة المترجم...

" كل فعل ترجمة هو فعل خيانة "...

هكذا ترعرعنا فى وطن الكتابة... فى وطن العالم الذى ينبُض فى جوف الصمت...

هكذا ترعرعنا..بالخيانة تتواصل الحياة. خيانة الطفولة التى لم يكن لها بأن تعى من العالم إلا مطلقاتِه المموِّهة. خيانة الشباب الذى لم يكن يعى من العالم إلا فتوَّة القفز فوق كُبات النار وجحيم الرغبة بالتطلُّع دائما عبر جدار الممنوع إلى فسحة المرغوب. خيانة الشيخوخة التى لن تعى أبدا رموز الدِّلالات التى ترقدُ فى الغنى الفاحش لأشياء الكون، والتى تُصرُّ على مواصلة الحياة فى شقاء الكون حتى و إن كان سبيلُها الوحيدُ إلى ذلك هو الموت...

هكذا ترعرعنا فى وطن الكتابة...خيانة...فحياةٌ... فموتٌ... فإعتاق...

نصوصُ تسرقُ نصوصا. نصوصُ تنام فى غفلة من عُمرها، ولا تصحُ إلا على قرع أجراس الخيانة... يا الله، كم من سبيلٍ ضاربٍ فى الغرابة تفتحهُ للإنسان ؟؟؟ كم من طريق تؤدى إلى منطوق الأشياء التى لم تنطق قطُّ بلغة المخلوقات، سوف تفتحه لنا... لاستعجامنا الأبدي، لكلام بسيطٍ ... بسيطٍ جدا ، اتفقنا حوله وآخرُ لا زلنا بعدُ نتناحر فى كشف أسراره !؟؟...

هكذا ترعرعنا فى وطن الكتابة...أسرارٌ لا تنفتحُ إلا على متاهات الأسرار...

غير أنهم ما زالوا بعدُ ، يكتبون كلاما مواليا لفرامانات سيدنا السلطان...

غير أنهم ما زالوا بعدُ يكتبون كلاما يبعدهم عن ديارهم ويُذيب فى أيديهم مفاتيح العودة إلى بيوتاتهم الدافئة و يُحيل أعشاشهم إلى ركام.

غير أنهم ما زالوا يكتبون كلاما يجمع بين كل الأزمنة إلا زمن الحياة...

غير أنهم ما زالوا ينفرون من الحرف بعد اكتسائهم بأولى جراحات الاكتشاف ، وغدر الحبيبة الأبدية و زوال الأصدقاء...

غير أن أسرارك.. يا الله ، تظل عصية على جميع كلامهم...

غير أن أسرارك يا الله ، ليست تعنينا...

هكذا ترعرعنا فى وطن الكتابة...حبّ حدَّ العماء، وشطحُ حدَّ الهلاك...

ونظلّ نصارع من الماضى ما غفل عنه " الآخر" المسكين ، ومن المضارع ما يغفل عنه "الآخر" القاتل، ومن المستقبل ، ما سوف يحاسبنا عنه " الآخر" الجبان...نظل نصارع عتاة الأطياف...لا نمسك بزمنٍ إلا لكى نبرّرَ بقاءنا ، ولا نبرّرُ بقاءنا إلا لكى لا نخجل من مرورنا على هذا الكون ذات دهرٍ

صَموت...أطيافُ تُصارعُ أطيافاً، ومن الأطياف تنفلق حياةً...لا بُدّ لها أن تنفلق...

من الخيانة تولد الحياة...

من الأطياف تولد الحياة...

من القتل تولد الحياة...

من التلاعب بأزمنة الكون تولد الحياة ...

لا شيء يأخذ شكله إلاَّ من ضدِّه ...

لا إيمانَ يُزهر لوزَ طمـأنينةً إلاَّ من إلحـاد..ولا ثورة تطلـع من حَاجز السكوت إلاّ من صراخ...

هل أضعنا ثورة الإنسان ؟ " نعم !؟ لا !؟ ... نعم أو لا !؟..."

هل ما زال الكتابُ يقولُ الربيعَ ويبعثُ بالجنيات الجميلات إلى حلم الرَّجُل ، ويأخذ بالحسناوات إلى جبل العجائب و يجلبُ البطل على صَهوة الحلم ويعيدُ الغريبَ إلى الدار ويُشعلُ الفانوسَ الطيبَ ويجمع العائلاتِ فى دفْء المكان ويقُصُص على لسان الجدة غريبَ الحكايا ويجلبُ الشمسَ الجميلةَ إلى نافذة الدار ويُقصِّر الطريق إلى المدرسة ويسْمَحُ بأولى الأشعار على كراسة الروح !؟؟ " نعم !؟ لا !؟ نعم أو لا!؟..."

هكذا ترعرعنا فى وطن الكتابة...

ثورةً صارت تعاتبُ ذواتنا التى ما كان لها أن تعرف كل هذا الزخم الهائل من أسرار الطريق...لغةً ، صارت تحرقنا عبر

سيجارة كل حرف نشعلُها فى درب الفكرة كى تستنير..وجعًا، صار يُرافقنا كظلِّنا الصِّينى أو العائد إلى كهوف البشرية الأولى ، ويُصرُّ علينا بأن ننسُجَهُ لمن ستخوِّلُ له نفسه ذات يومٍ بالسَّير على وقع آثارنا الكليمة...

من أين يولدُ الكلام !؟

من الصمت طبعا ، فالمتكلّمُ لا يعى إلا كلماته ، ولا يُردِّدُ إلا مقامات الثرثرة...

من أين يولد الحرف ؟

من الرسم طبعا، فالعابث بالشكل ، مغامرٌ فى مملكة الأمية وكافرٌ بكل محطات التوقُّف وجغرافية الحدود وشرطة القواعد ..وشرطة المراكز/المخافر ومقدَّسات الحفاظ على التراث ملائكة الفصل الواحد الذين لا يُخرِجُون الزمن عن كسوة الخريف ومعطف الشتاء و حرِّ الصيف...

من أين تولد الحياة؟؟ من الحب.

من الحبّ المُمَارَس. والعشق المتلثم بالخوف يظلّ عشقا لصيقا بالعبد الذى لا يُحسنُ كسر مقاليد القبيلة...يظلُّ كلاما من غُبار، تكفيه ريحٌ واحدة فقط ، كى يستحيل إلى ركام فيضيِّع معناه ودلالته ويُنعَتُ حينها بالبلاغة ...وما هو بالبليغ فى شيء ، أو

بالعـذرية ...ومـا هو بالعـذرى فى شـيء...أو بـالعـفـة..ومـا هو بالعفيف فى شـيء...

العشق المتلثِّمُ بالخوف ،هو كالموت...لا صلة له بالحياة إلا كضد..

هكذا ترعرعنا فى وطن الكتابة...

نخون نصوصا ، كى تطلع منها الحياة... ونفتح فى أنفسنا مسارحَ واسعة لقتل نصوصنا مستقبلا... نحن أيضا... " فالحياة...هى دائما موتُ أحدٍ ما ! "...

بسكرة فى ١٣-٠١-٢٠٠٧ .

التلميذ والدرس

إلى سوزون و أخي رشيد

إلى بيار...العظيم

إلى ناديا..دميتي

إلى مالك...ابني ...

(١)

لم أعهد ابنتي بهذا الجمال، بهذه الوقاحة والشراسة. ليس للزمن ذاكرة . نسيتُ ذلك . ليس للزمن ذاكرة ، غير أنَّه فنان . وهذى الكلمات التى تتلهَّى : الجو جميل ... أنا ، أشعرُ بأننى صرتُ قبيحا منذُ زمن طويل . لم ينتصر ليَ الزمنُ أبدا . رهل بطني، صرتُ أُدخّنُ أقل. وأمَّا عن سنّي، فإننى أعتقدُ فى طيبتَي، أكثر من الشعيرات البيض التى تنسدل عبر أفكارى . التجاعيدُ لن تأتى أبدا لتحنو على وجهي. لا أمتلكُ نُبلَ الصُّخور التى خدَشَتْها الأمواج. أمتلكُ حالةً مدنيةً فقط ، هذا كل ما فى الأمر.

حالةً مدنية فقط، ومجموعةً من الهلوسات والاندهاشُ تجاه بقائى . ما تعرفتُ على نفسى قطُّ جيّدا .

لم أعدْ أعرفُ ابنتي.

فضيلة، وُلدت في لحظة الكلمات . أرمقُها . لا أفهم. عيناها سوداوان. إنهما تلمعانِ، وجلتان. هاتان العينانِ ستتغيران على إذن . خلف مكتَبي ، تبدو المدينةُ الصغَيرة نعسانةً. إنها دائمةُ النّعاس هذه المدينةُ الصغيرة . فقد كان الجوُّ حارا جدا ، تحت سقوفها ، سطوحها وبحرها. وأمّا الليل، فقد قدِم كامرأة. قدم كفتاةٍ يَانعة. قدم مع فضيلة.

ضخمةٌ هيَ اللحظةُ ، ثقيلةٌ ، طويلة. علينا أن نعتقها. أن نمنحها الخطوة الواسعة. والحاضر، يلزمه كثيرٌ من الوقت، وأنا لا أُحسنُ الانتظار.

هذه الصَّغيرةُ التي لم أعُدْ أعرفها، أعرفها رغم ذلك. بقلبي أعرفُها. بكامل قلبي. غير أنَّا لا نستطيع أن نتعرَّف على أي شيء، بطريقة كهذه. القلب ليس عاقلا، قلبي خاصةً. القلب أبله.

هذه الظهيرة، قمتُ بزيارة لمريضٍ. لطبيبٍ أعرِفُه منذُ أربع سنوات. لجرَّاحٍ صديق.

قال لي:

– أنت طبيب، لا تكذب.

أجبتُه:

– أكذب، لأنَّني طبيب.

حاولَ أن يبتسم.

– انتهى الأمر!

انتهى ! الكلماتُ هي التي انتهت. الفكرة ، وماذا بعد!. أُرَتِّبُ أحوالي دائما لتتلاءم مع أفكاري. تشخيصي هو الذي يُملي عليَّ ذلك.

هل نستطيعُ أن نكتبَ على ورقة الفحص: لِمَن الدورُ الآن؟

دوركَ يا أيها العجوز، دوركَ الآن. هذا مضحك! عالجتَ أشخاصا عدَّة، أشفيتَهم، أنقذتَهم، سمحتَ لهم بالنهوض من جديد وهكذا. سنفسحُ مجالا للجلاد الآن ، إنها في انتظارك يا صديقي روبير، لا تدعها تنتظر . عليك أن تمُرّ . سرطانُكَ ! أنا لا أهتم لأمره . لاحظتُ عينيكَ . لاحظتَ عينيَّ.

- بهيكلكَ....

كنتُ أعرف بأنه سوف يرحلُ عند المساء. هو أيضا كان يعرف ذلك . لا أُفكِّرُ إلا فى تلك الصورة، بين الطلبة الداخليين والممرضات، فى إحدى زوايا الغرفة.

ويكرِّرُ الهاتف على مسمعى :

- ...آسف و لكن الدكتور كوسْتْ، علَّق كل مواعيده...

بصوتٍ أبيض .

علَّقَ مواعيدَهُ...!

قضية أولويات ، كانت له شؤونٌ فى مكانٍ آخر.

لا أستطيع . ليس من مهامى أن أسردً هذا أمام ابنتي. ابنتى لم تأخذ موعدا . تحديدا ؛ لستُ أنا الموت. لستُ طبيبا لها. لستُ أباً لها بما يكفي، ليست ابنتى كلية...

سوفَ أنصِتُ. سوف أنصتُ مليًا. ليس لى أن أتحدثَ عن فظاعة صمتي.

الكلماتُ، هى إالتى انتهى أمرُها.

المدينةُ الصغيرةُ ناعسَة . المدينة الصغيرةُ ستخلدُ إلى النوم. ستحلمُ حتما، وسوف أكون كابوسَها.

أُدْعى إيدير، إيدير صلاح ، أنا هو الدكتور إيدير صلاح وأقطن مدينة فرنسا الصغيرة. المدينة الصغيرة الناعسة منذُ ١٩٤٥ .

(٢)

دوما تُواصلُ النَّظرَ إليّ . وأما أنا فإننى أُمعِنُ النظر إلى شجرة السَّرو القريبة من "بونة"(١) وإلى مثلَّجَ الليمون. البحر فى هذا المكان ، تمَّ رسمُهُ من قبل طفلٍ فى المدرسة الابتدائية . الحرارةُ كانت فاقعةَ اللون وكانت فضيلةً تأخذُ حمامها الأول أمام " طلوع الفجر"(٢) . الزُّرقةُ كانت تملأُ المكان . وعند الظهيرة، كانت فى الشوارع الصغيرة كؤوسَ ليمون مثلجة، تشبِهُ الفرحةَ. فى شارع العرب، تركتُ قلبي.

تركتُ قلبى فى كأس ليمونٍ مثلَّج .

سوف تتكلَّم ، إننى أشعرُ بها.

تأخذُ اللحظةُ زمناً.

أخشى أن يرنَّ الهاتف.

الدكتور كوسْتْ أخذ موعدا هذا المساء.

ابنتي:هى لحظةٌ تبلغ من العمرِ اثنتين وعشرين سنة. إنه يرنُّ ، يدق هنا، فى داخلى . تبتعدُ الليمونات بكؤوسها المثلجة.

يا إلهي، أيُعقلُ هذا، هل خرجتْ فعلا لتوها من الثانوى ؟

نهداها شديدا الاستدارة. ليس لديها ميلٌ لمواد التجميل.

هى امرأةٌ دون أن تلجأ إلى مواد التجميل.

---

(١) بونة أو عنابة : مدينة فى الشرق الجزائرى .

(٢) طلوع الفجر:خليجٌ صغير محاذٍ لمدينة عنابة.

إنها جميلةٌ . أصرِّحُ لكم بذلك.

حين كنتُ فى العشرين، لم أكنْ رجُلا. كنت طالباً. ليس لعشرينيات اليوم نفس القيمة ، نفس المكانة الرقمية. علمُ الحساب نفسُه، أصبح بلا قيمة . لم أعرف أبدا، لماذا تصْنَعُ الأصفارُ أعداداً.

***

لن أقول لها :

– إنَّنِي أنصتُ إليكِ يا بُنيَّتي.

لم تأتِ لكى تشرح لي. جاءت لكى تحتجّ، تطالبَ، تُصدرِ حكمَها.

رغم هذا فإنَّ يديّ ستضيعان دهشةً فى أغوار شعرها.

يدُ الأبِ شبيهة ببصرِ المصابين بقِصَرِ النَّظر . فى لمسها للحقيقة عن قرب ، تعودُ اليدُ إلى حدسها ، مستصغرةً حدَّة اكتشافها البِدائى لموروث معروف ، تمت معرفته من جديد ووجبَ الدفاع عنه.

ابنتي.

نعم، ابنتي.

السوادُ الكثيفُ يُخيِّمُ على المدينة الناعسة .المدينة الدائمة النعاس. عاد الليمون المثلَّج والكؤوس الصغيرة إلى بيته، أى إلى ضيافتي.

الدكتور كوست على موعد . وأنا على موعد مع صغيرتي.

صغيرتي؟

بيدَ أنَّ هذا قريبٌ من الحقيقة.

هرمتُ إذن ، وصار لزاما عليَّ أن أحصل على صفةٍ تؤكِّدُني.

بأية صفة ؟

أنا بالكاد أبٌ لها . شرعيتى الوحيدة أستمدُّها من عاطفتى نحـوهـا ، من إيمانى بـأن الكلمـات قـد قُـضـِى على أمـرِهـا ، بأن الحياة مقصوفة كشجرةٍ ، اعتنَقتها الصاعقة، كهذا الجنون الذى يتبادر فى اللَّحظة التى أرنو فيها إلى صغيرتي، الدكتور كوسْتْ ، الدكتور كوسْتْ ، صديقى الذى قوَّمَ الشقاء والآمال ..

أفضِّلُ أن تُمطر بعيدا عن عيوني. الليلُ ليس جميلا.

لن أقول :

إنَّنى أستمعُ إليكِ يا ابنتي.

للَّيل، لابنتي. سوف أترُكُ العناية لـلَّيل ولابنتى لكى يُكلّماني.

فجـأةً، إذ بفكرة مـخيفـة تُـحاصرُني: "ماذا لو خاطبَتنى بصيغة الرسميات؟ لو قالت مثلا: " قَدِمتُ إلى حضرتكم يا دكتور لأجل.."

آه، لا ! لن أحـتـمِل هـذا أبدا ! سـيكون هذا هـو الغـبـاءُ ذاته، سوف أنزعِج.

انتهاء أمرِ الكلمات، أمرٌ أتفهمهُّ، ولكنها حين تستـحيلُ شريرةً، الكلماتُ، تستحيلُ إلى أمرٍ مرعب.

ماذا سوف أفعل بها هذه اللَّحظة ؟

لحسن حظى ، يرنُّ الهاتف.

أنهضُ متوجها إليه و قد خفَّت هواجسي. عبر النافذة، تبدو السقوف زرقاء.

– حالة الدكتور سيئة جدا ...

– سوف أحضرُ حالا...

سمِعَتْ ابنتى ما دار خلال المكالمة.

أشيرُ إليها بيدى بما معناه :

– أنا آسف...

ولكننى لم أقُلْ شيئا، لم أنبس ببنت شفة.

***

(٣)

قال لى الدكتور كوستْ : " مساء الخير " على طريقته . لم أتعرَّف عليه حين رمقت عينيه . لم أتعرَّف على الموت.

ابتسمَ لى مثلما فى الظهيرة. ومثلما فى الظهيرة :

- أنت طبيب، لا تكذب.

لم تكن زوجتُه باكية. كانت على علم بأنَّ النُّعَاس يُغلِّفُ الدكتورَ كوستْ.

يغلفه النعاس، مثل المدينة الصغيرة.

أنا، قمتُ بكل ما استطعت القيام به.

لم يعدْ فى المُستطاع فعل المزيد.

***

رأيتُ العناقيدَ البيضَ فى العنَبِ المجَفَّف. أرى يَدَ الدكتور كوست. إنها تتدلى متروكة إلى حالها ، شبيهةً بقُفَّازات من الكاوتش. شحوبها اللاّمِع يبدو كالمسحوق المبلَّل. عليك أن تتحلى بالجلالة ، يا دكتور كوست. وأن تعلِّق مواعيدك.

أذكر جيّدا يَدَى الدكتور كوسْتْ ، الجرَّاحُ الصديق.

***

عند عودتى ، كانت فضيلة تُدخِّن. لا أُحبِّذُ أن تدخن المرأة. وبخاصة، إذا كانت جزائرية.

وهذه، ابنتي.
بكل بساطة ، قُـمت بدفع منفضة السجائر إليها.
أنا أمقتُ الرَّماد ، كيفما كان الرَّماد.
أهلا دكتور كوست !...
ثم اعتدلتُ مستعدا للاستماع.

***

(٤)

– أنتظرُ ولدا ، ولا أرغبُ بهذا الولد.

كانتِ الكلماتُ ترتسمُ فى الصَمت.

لطالما حلمتُ بهذا الولد الذى ينتظر والدَه.

ثم أضافت :

– عليكَ أن تعى بأنَّه، و فى الظروف الراهنة...

فمٌ جميل، و لكنه ليس مُحقا.

***

أرخى الدكتور كوست يدَه الآن متخليًا عنها. هذه اليد التى لولا رحمة الله لكانت بلا قيمة ، هذه اليد التى كانت تمتهن التشريح.

التى كانت تَجترحُ المعجزات.

أحيانا كنتُ أقصدُ غرفةَ العملياتِ لمشاهدته . كان ذلك بمثابة صراع. كانت هذه اليَدُ بحاجة إلى الله، وكان المشرطُ مجرّد نعلَّة.

– دكتور إيدير، لا تنس، إننى أمنحُ كل شيء للآخر...

الآخرِ، كان أيضا... الله.

وكانت عيناه الصغيرتان جدا، عينان غائرتان فى رماديتهما، حذِرتان، تؤكِّدان على الصلاة:

– صلاح ، بدْ الله يُزعِجُني.

كنتُ على علم بتلك النزاعات . الصراع لم يكن سوى حوارٍ محسّن...

– فى الظروف الراهنة...

أرغبُ فى قول :

– ولكنَّنا نمارسُ الحبَّ فى الظروف الراهنة.

غير أننى لن أقول هذا . لن أقول أى شيء. حيائى يمنعني.

أنا غربىٌ فى ظاهرى . ظاهرى فقط.

– لقد جئتِ إذن...

أشكُ، يا أيتها الصغيرة ، لماذا جئتِ، انظرى إليَّ وجها لوجه بحق الله!.

جانبيا ، فضيلة تُشبهُ الاحتجاج.

آه ! لو أنَّكِ جئتِ لكى تُقبلِّينى ، لكى تقولي: "أبي". لستُ سوى أبيكِ، ويا لَهذه المَصادفة التى جعلتْ هذا الأبَ طبيبا.

... ماذا تفعلُ الآن يا دكتور كوست؟ هل بدأ الله فى مضايقتك؟ ما رأيُ هذا السيدُ العظيم فى براعة يدَيك؟ هل أخبرتَهُ بفزعك، قبل وضعك للقفازات؟ إنَّ أكثر ما يُريحُ فى الله، هو أنه يجعلُنا نعتقدُ بأنه يعرف كل شيء.

أتذكَّرُ الآن ، كان الطفل بلا رقَبَة. وحشا. القيصرية كانت عسيرة . قطعةٌ من عظم الكتف، لا غير . كنتَ قد قمتَ بما يجب، بمراقبة الدارة المغلقة ببروتوكسيد الآزوت أنت ذاتك . ولكنه كان وحشا. القابلةُ، طبيبة روسية عجوز، كُنَّا نطلقُ عليها لقب "إيفون" ، كانت تقول:

– لحسن الحظ، هو ليس سوى غشيةٌ زرقاء،عليكم بتركه...

...أذكرُ فورة غضبكَ حينها .وضعتَ فمك الكبير على فمه الصغير. دون قماشٍ معقّم .كانت قناعتُك هى التى تقودك إلى ذلك. وحدث أن عاش هذا البائس خمساً وعشرين دقيقة . فى نظرك أنت، لم يكن وحشا. كان معجزة. كنتَ تَتصببُ عرقا. آهٍ يا عزيزى كوست، لقد كنتَ جميلا حقا . كنتَ تتنفس مع الميِّتَ الجديد...

تكلِّمُنى فضيلة:

– فى الظَّرف الرَّاهن ، لا أستطيع الاحتفاظ بهذا الولد.

ثم تُضيف :

– أنا شخصيا ، لم أخترْ المجيءَ إلى هذا العالم...

المدينة الصغيرةُ التى تشعر بالنعاس،تدقُّ الآن أجراسَها.

الزيزان المُروبصة ، تقوم بآخر محاولةٍ لها على جدار النوم .عبر المحطة ، كانت القطارات تأخذ طريقها نحو غرنوبل . القطارات أثناء عبورها ، تكتب أشعارا .

– أريدكَ أن تعيننى على إسقاط ...

على إسقاط ؟...

فى هذه اللحظة ، وددتُ أن أقول:

– حدِّثينى عن الجزائر...

قليلٌ عليّ ، نشيدُ الإسقاط هذا .

إنَّ الليلة ستستطيل . أعتقد بأن اللحظة ، ستدوم كامل الليل.

***

مضمونُ خطاب فضيلة كان يؤكّدُ على أخطائى . لم يكن عليّ

أن أستقرَّ في فرنسا بعد موت قرينتي. ما كانَ عليّ هذا ، ما كان عليَّ ذاك . ما كان عليَّ فعل هذا، ما كان عليَّ فعل ذلك. لم أبحث إلا عن السلام، بحثتُ عن أمانيَ فقط . لستُ إلا أنانيا منعدم الحسّ بلا ضمير وطني...منعدم الضمير. مناصرا للحلول البسيطة، لجأ إلى الضفة الأُخرى ، ضفة التاريخ الآخر...إلخ

كل كلماتِ ابنتي كانت تبتدئُ بحروفٍ نافرة . الإهانة تبدأ بالحروف النافرة.

ثم تعقبُها كلماتُ مُهينَة.

انتظرتُ منها أن تستعمل كلمة: خائن .

بأربعة حروف ضخمة.

بأحرفَ مصنَّفة. بالنسبة لها، كنت خائنا. صدرها الذي كان يهتز، كان يعترف بذلك. عدا ذلك، فليس هناك إلاَّ الخونة مَنْ نشيحُ بوجهنا عنهم .علَّمَتْنى التجربة ، أن أُتقن جيدا قيمة التأمُّل في وجه مريض بلا أمل . تعلَّمتُ القيام بذلك . إن المرضَ ليس إلاَّ حالة خيانة.

تردَّدتْ فضيلةُ كثيرا قبل المواصلة :

– فكَّرتُ في أنه بإمكانك إعانتي...

هي لا تطلبُ أيّ شيء . هي تُطالب. هي تأمر . وهذه اللهجة لا تُعجبُني.

هل أمتلك الحقَّ في قول :

– ولكن يا أيتُها المُتعبَة، سوف تنالين ضربة على مؤخرتك ؟

في الحقيقة ، لم يكُن هذا سوى محاكَمَة.

(٥)

كان يا ما كان، فى مدينة تدعى باريس ، طالبةٌ وطالب. كان الطالبان يقرآن الجرائد و يكبران بسرعة . لم تكن الدراسة شغلهما الشاغل . ما كان لديهما الوقت لذلك. أبناءُ الشقاء أكبر سنًّا من أساتذتهم . الدراما، الدراما الفعلية ، تجعل الشقاء يُحيل صاحبه أكثر ذكاءً من المجتهِد. الحرب لا تُعبِّئُ الجند فقط . بل إنها تُجمِّدُ الأذهان .

كان يا ما كان، حربٌ شريرة ومتكالبة. هذا الطالب، وهذه الطالبة، صارا بلا بصر. لم يعد بإمكانهما رؤية الأطفال الذين يدفعون بقواربهم الصغيرة فى حديقة لكسمبورغ. كانا يُحبان الأطفالَ رغم ذلك. كانا طفلين ، هما أيضا. كانا يعشقان المراكب الشِّراعية الصغيرة التى تُعيد خلق ريح الصِّبا على بوَّابات القصر العجوز. فى المطعم الجامعي، فى السينما ، على "البول ميتش" فى ساحة سان سولبيس ، قرب السِّين،عبر أيام الآحاد اليتيمة ، لم يكن هذا الطالب ، لم تكن هذه الطالبة ، يتكلمان عن اللّيسانس ولا يتبادلان كلمات الحب.

يتكلَّمان عن الجزائر . عموما ، كان الحديثُ يعودُ إلى النقطة ذاتها.

لا يتكلمان أبدا عن المطر و الجو الجميل.

يُحبَّان المطر الذى يجعلُ الحلزون وبائعى أبو فروة يخرجون

إلى الشارع . يحبان الجو الجميل الذى يجعلُ الأزاهير تخرجُ من آلام مايو . شهر الألم ١٩٤٥ , .عام الشقاء . الجو الجميل ، الذى يجعلُ الفساتين المضيئة تخرج . يجعل الدموع تنبثق. هذا الشهر. هذا الشهر الذى فاق الجميعَ فى لعنتِه ..شهر الجحيم !..

هذا الطالبُ، هذه الطالبة، كانا فى صراعٍ ضدَّ الرزنامة الغربية. شهر جويلية الذى لم يعد يتغنى بمحاصيل الحب ، ولكن بذكرى إنزال ١٨٣٠ عند ضفاف الجزائر. نوفمبر الذى لم يعد يتغنى بتيبازة الرائعة ، بالهواء العليل الذى يعود إلى جبال الأكفادو ، بل بالغضب والدّم. بالنسبة للطالب، بالنسبة للطالبة ، كل يوم فى السنة ، كان عيد ميلاد.

فى هذا الزمن لم تعد هناك أيامُ للعطل.

كان العالم يعيش النهاية.

الناس كانوا يتعارفون فيما بينهم، فقط لأنَّهم جزائريون. هذه هي معجزة الحرب الوحيدة، التي جعلت شعبا يتوحَّدُ في عبارةٍ واحدة :... البلِد...أو بشكلٍ أدق.... الوطن. الشقاءُ يجمعُ أكثرَ من الفرح. السَّهراتُ تجمعُ أكثرَ حينما يهدِّدُنا الشتاء. لا شيء أعظم من الملجأ حينِ يدور الحديث حول الحنين إلي العائلة . السعادة مجرَّدُ حادث.

(٦)

كان يا ما كان ، فى مدينة تدعى باريس. ولا زالت كذلك رغم كل شيء -تدعى باريس- شارعٌ صغيرٌ خرج مباشرة من قصيدة لفرانسوا كوبيه. فى ذلك الشارع ، كان عمر و فضيلة يلتقيان.

يقصدُ اليتيمان الخمَّارة.

لا خمَّارة فى باريس بدون تاريخ .

- مقال لوموند ، رائع!..

قشعريرة تنتابُ فضيلة .

صاحب المقهى سعيدٌ كالأغنياء.

سيان عندَه إن هو سقى سكِّيرا أو يتيماً. لا يهمُّه الأمر. إنه لا يَسقِى ، بل يُستَسْقى. يُنصتان حولهُما إلى المدينة غير المبالية. الحافلاتُ ذات أنوفٍ غريبة . وهناك حمَامٌ كثير . تقشعرّ فضيلة . فى باريس، لم يَعُد الحبُّ يتغنَّى على نغمات فرانسوا كوبيه.

***

لقد صوَّتوا لصالح السُّلطات الخاصَّة !...نعم يا فضيلة ، هم صوتوا للسلطات الخاصة . نعم ، يا فضيلة، نعم. هم ، أقصد بذلك الأعضاءَ الشيوعيين فى البرلمان . هم ، أقصدُ بذلك الأملَ الكاذبَ لاعتقادٍ قديم . هم، أقصدُ بذلك...

لا يهم..! لا يهم إن انتفض جبل الفيركور. النّادلُ غيرُ مهم ،

ماكينة القمار،٦٣ القادمة من "لامويات" ، الحمَامُ المنتشرُ في السَّاحة والسّماء ، باريسُ التي لا زالت بعدُ باريس والتي لم تعد تستحقّ أن تُكتَبَ بحرفٍ كبير عند بدايتها. لا يهم ، بائعة الجرائد في دكانها، في مشكاتها، قرب شمعتها، بائعة الجرائد الفقيرة، التي لن تغتني أبدا والتي تَعِد بآخر الأحداث ، بينما شعرُها الذي يَخيطُه الشَّيبُ، يَعِدُ دائما بالنّشرات القديمة.

لقد صوتُّوا لصالِح السّلطات الخاصّة!...

إذن ، فإنَّ الفيركور سينتفض. وماذا ستقول سيبول؟ ماذا ستقول لوحة غرنيكا. ماذا سيقول الإستيريل والأوراس، النمنشتاس والأورادور...وأنت، يا أخي الصغير غي موكيت...وأنتِ، يا أختي لادانييل...وفوسيك وجياب ومَكاريوس وذلك الشاعر الصامت وهوارد فاست وتلك الوردة التي تتربع على أعالي الغراموس وذلك الشهيد الرائع الذي يحتجٌّ على ضميره والمفكر الصغير أحمَرُ الشّعر والحمَّالون في مرفأ وهران والحمالون في مرفأ الجزائر...

والزَّمِيلُ العُضو في اللُّجنة المركزية ، والذي قال لعمر ذات يوم: "سوف أقصد حديقة "القَطَّار" لأقتطف الحلزون من على قبر قدُّور بلقايم(١) لكي أهديه إلى الطفلة التي ستُرزقُ بها..." ...

لقد صوتّوا للسُّلطات الخاصة !...

---

(١) قدُّور بلقايم : أمين الحزب الشيوعي الجزائري ، توفي سنة ١٩٤٠ ، وتم دفنه في جبانة القطَّار (ضاحية قسطنطينة) الجزائر.

عمر لا يبحثُ عن كلماته :

حتى هم !..

لا نغفر أبدا لأولئك الذين نحبُّهُم . لأولئك الذين أحببناهم فالأمر يتعلَّقُ بحياة بشر . الأمر يتعلَّقُ بموت البشر .

***

كانت هناك القهوة السوداء،غرفةُ الهاتِف القريبة من المراحيضِ العامَّة، صمتُ الأرياف الذى يجالس المقاعد وأحواضَ السَّمك التى تدور حول نفسها. لم يكن ذلك حبا. كان مجرد عادة قديمة.

– لقد صوتوا للسُّلطات العامّة!..

وفضيلة تواصل النّظر مرتجفة إلى عمر.

عمر الذى يُخرج من محفظته مثلثا ورقياً .

عمر الذى يُمعنُ النَّظر فى المثلَّث الورقي.

عمر الذى يمزِّقُ بدقة، وبكل هدوء ذلك المثلث الورقى .

عمر الذى يضع قطعة الورق الصغيرة فى منفضة السجائر كمن يرمِّدُ ذكرى.

عمر الذى قام لتوّه بتمزيق بطاقته.بطاقة عضويته فى الحزب الشيوعي.

***

مسؤول الحزب سمين وواثق.واثقٌ من نفسه كثيرا.. المسكين، لم يحدث قطٌّ أن فكَّر فى أخطائه . هو شبيه بافتتاحية ما . قال لأحد زملاء عمر، حين قصدَهُ منددًا:

– السلطات الخاصة ؟ سوف تفهم ذلك بعد ثلاثة أشهر...

***

سنواتٌ مرَّت الآن ، وكل أماسى الاثنين تصدحُ القناة الفرنسية أر.تي. إف بحصيلة أمجادها التى مفادُها أنه :

– تمَّ القضاءُ فى الميدان ، على كذا جزائرى ...

***

(٧)

بإمكان السَّلام أن يعود ، ولكنه لن يعود إلى الأذهان بشكل مبكِّر. ليس للقلب ذاكرة، لكنه ينزف. الضغينة لا تمتلك إلا بعض الوقت .الغلّ يمتلك كامل الوقت . أتفهمُّ فضيلة. هى ابنتى . لقد عانت، وما زالت تعاني، هذا منطقي، قابلٌ للشرح وتاريخي.

لم تنشط فى السِّياسَة مثلما يفعلُ بعض الحمقى بحجة الانتساب السياسى المراهق الذى يدفع بهم إلى ملء فراغهم ورومانسيتهم الغددية عن طريق نشر المعلقات، والحلم بتغيير وجه العالم. كانت تعانى أكثر مما كانت تنشط. كانت غاضبة.

غاضبةٌ أنت، يا سياستى الطيبة المسكينة ! غاضبةٌ ، يا تمثال حناني، يا طفل الحُب وما سيجيء ، يا خريف اللَّيلك المجهضِ ، فضيلةُ ، يا صغيرة بلدى ! واثقةٌ أنت من ذاتك، عسيرة التركيب، بسيطة ، بسيطة كصباح جميل ، بسيطة مثل ليلة بسيطة ، وديعةٌ كأفول البسمات ، طفلٌ غاضبٌ أنتِ بملامحٍ ملكية عظيمة ، جَرُوحٌ، عصية على الانكسار، بريئة فى لا عدلك ، فعلا أنت غاضبة، وحنون ومرتجفة ، وعاشقة ، وجذّابة خاصة ، جزائريةٌ، جزائرية بكاملك ، بتمامك.

حسَب علِمى ، لم يبلغ أيٌّ كان ، أيٌّ كان العشرين فى الجزائر.

***

شيء أكيدٌ: لستُ أبدا الإله الطيب . ردة فعلى لا تمتلك أى شيء من الورع ، من الوَجَل ، أو من الرؤية الروحية البسيطة. أجهلُ كيف أمنح الحياة .تحت أية صفة. وبأية صفة سيكون باستطاعتى أو بمقدورى أن أهب الموت ؟ لا أتصرفُ كطبيب ولا كرجل أخلاق أو كمؤمن.

في الحقيقة، أنا لا أفهمُ الموتَ. أقِرُّ كلية بالانتحار، لأن المنتحرَ، هو وحده المسؤول عن انتحارِه. لا تترتب عنه إلا ذاته . انشقاقه عن الإله الطيب ليس أمرا يعنيني.

– أطلبُ منكَ أن تنزِّلَ هذا الولد....

أُشيرُ إليها برأسى بما معناه " لا ".

لا أتصرَّف أيضا كما الجَد.

المهم ليس هذا .

أين هو المهمّ ؟ لستُ الإلهَ الطيِّب ، وليس الله هو الذى يدفع بى إلى أن أرفض الإجهاض. الله لا يعنينى مباشرة. أؤمن بالله، و لكن، ليس فى عدالته. رأيت الكثير من الشَّقَاء، والأشقياء. أنا لا أحكم على الله، أنا أستنتجُ...

فضيلة، كم هى جميلة !.

عندما هززتُ برأسى بمَا معناه أنني" أرفض إنزال الولد"، لاحظتُ بأنَّ وجهَها شَحُبَ. كانت وكأنما تتوجَّه إليّ بطلبِ سدادِ دينٍ هى الوحيدةُ المعنية بأمره...

...بيد أنَّه ، بيد أنه لو كان ولدا ، لو كان ولدا ، كم هى ظريفة هذه العبارة ! لو كان ولدا ...أووف، هناك شيءٌ يتحرك . لستُ متأكدا الآن بأننى لست جَداً . لو كان ولدا ...

لو كان ولدا ، فسوف أقول لفضيلة ، أنصِتى إليَّ ، أنصتى إليَّ جيدا ، كما هذا الجيِّدُ المرتسمُ فى هذه الأهداب الجميلة المطرَّزة : إننى أرى كل البراكين تطفو على السطح !..أووه يا جلالة سلالتى المقدَّسة . كنتُ أحلم دائما بأن أحلم ؛ أى بأن أكتب. حتما ، أنا مقبولٌ كطبيب. ولكن ككاتب! حتما سأكون رديئا. لم يخلقنى الله شاعرا . يداى لا تشعران بالأمان إلا إذا أحكمتا قبضتيهما على المشرط . أمَّا القلمُ ، فسوف يبدو حملا ثقيلا عليهما. كنتُ أحلم دائما بأن أحلمَ دون أن أكون بحاجة إلى المشرط أو القلم. فشلتُ فى العديد من العمليات. كل جرَّاح فشل فى العديد من العمليات. الشاعرُ لا يستطيع أن يفشل فى قصيدة، دون أن يكون فاشلا . لا أمتلكُ حتى الحظَّ فى أن أكون فاشلا. لست سوى جرَّاح . هذا كل ما فى الأمر. أعلَمُ بأن هناك شعراء، شعراء مرضى ومستشفيات. حين كنت غِرًّا ، كانت مذكرة أحد الداخليين الزُّملاءَ الذين تبرُقُ أعينُهم فِطنةَ كالباحثين ، تُذهلُني. إلى الأطفال المرضى ، حول فرلين. اليوم ، ترقد هذه المذكرة فى إحدى مكتبات شارع مدرسة الطِّب ، شاحبةً ومتذمِّرة على الرفوف. فالناس لا يشاهدون إلاَّ صورَ المشاهير التى تتغيّر كلَّ

سينما الحى اللاتيني...

لو كان ولدا ، فإن البراكين الثائرة فى بطنكِ وفى صدرى سوف تُحدِّثُني، اسمعى يا فضيلة : للعالم الصَّغَير عيونٌ زرق، والصحراء قد راجعت نفاد صبرها العظيم .

ولأضفتُ: بسبب اللَّيمون الذى يعطِّرُ الثلج المخفَّق فى الكؤوس الصغيرة لشوارع بونة ، بسبب البَيْض المدهون بالألوان الجميلة الفاقعة ، بسبب فرحة أبناء الحى العربي، بسبب أفلام طرزان ، أغانى محيى الدين وريمون ، بسبب الأطفال الذين يشترون الحمص المشويّ، الذين يقصدون الملعب ، الذين تتجمَّدُ أيديهم عصيانا كخضوعِهم ، بسبب الأطفال الذين يحلُمون بأن يصبحوا كبارا والذين يمنعهم غباء التاريخ من أن يصبحوا كذلك ، بسبب الأطفال، يا فضيلة، فإن ابنك الذى هو الآن رجل ،بسبب الأطفال وأقداح الليمون الصغيرة، بسبب طرزان و الفول السوداني، بسبب الرجال ،فإن هذا الولد، سوف يعيش.

***

فقط ، لو كان ولدا ... واأسفاه ،البراكين تستفيقُ فقط ، حين تكون الصخور قد ماتت.

(٨)

– لا أرغبُ بهذا الطفل...

فضيلة ، ترغبُ، قليلاً .

قليلاً، كثيرا، بشغف. المرأةُ تريد دائما ولدَها، إلاَّ أنّها تجزع من ذلك حين يكون الحب المُطَمئِنُ غائبا، الحبُّ الذى يدفع بعربة الطفل، الذى يقطف البندقَ ويخافُ من أولى علامات الحصبة.

أنا أُندِّدُ، أرفضُ الإجهاضَ لأنه وجهةَ نظرٍ مصدرُها العقل.

الطِّفل ليس وجهةَ نظرٍ مصدرُها العَقل.

لا تريد فضيلةُ هذا الطّفل . كانت لا تُريده . و هذا هو الأهم . هذا هو الأسوأ.

***

فى شارع كلومبييه العتيق، كانوا يُنشدون الأغاني. فمُ الميترو...بائعةُ جرائد شارع رِين. وإلى اليسار، فى الأعلى، ترتفع ببلادةٍ وجلالة، ناطحاتُ السّين– سولبيس. تشدُّ فضيلة محفظتها الصغيرة إلى صدرها الصغير . يُعدِّلُ عمر نظّاراته بأنفه.

فضيلة لا تنظر أبدا إلى عمر وجها لوجه. منذُ أن...منذُ أن صارت تُحبُّه. ومنذُ أن صار هذا الحب متبادَلا ، صارت الآلام تحاصر عمر عند كل موضع.

– أنت تعلمُ، بدأتْ تقول، أنت تعلم، سوف أُرزقُ بولدٍ.

لم تقُلْ :

- سوف أُرزَقُ بطفلة.

ولكنها نطقت بهذا، و كأنما خلِصت إلى القول:

- أنا مريضةٌ ، قليلا.

وكـأنما، لا دخل لعمر بـهذا الأمر . بالنسبة لها لم يكن الحب مسألة مُعتادة.

الاضطرابُ وحـدَه هو النَّـظري. وبمجـرَّد أن نظر عـمـر إلى فـضـيلة، إذ بالمشـاكل تـغـدو بسـيطة. كـان ينتظر الصَّـبـاح. كـان يُمارس السياسة : إنه ينتظر ولدا.

تأخذ فضيلةُ بيده، وكأنّما لتحافظ على مسافة بينها وبينهُ:

- أنا أنتظرُ ولداَ . هل تسمعُنى ؟ أنتظرُ ولدا.

كانت وكأنما تلومه على هذا الولد.

لأنَّهُ ولدٌ،ومـازال بعـدُ صـغيرا. مـازال صـغيرا كـوالديه. الولدُ يعنى كوخاً لأطفالٍ بلا كوخ، يعنى : أنَّ عليه أن يرى أشيـاءَ أُخرى غيرَ اليتامى...

فضيلةُ، حلُمَت بحبٍّ سياسيّ. نسيتْ أنَّ كلَّ قصصِ الحبِّ هـى سـياسـة. من أجلِ الحـصـول على الحبّ، لا بُدَّ من ممارسـة الحبِّ. للأسف، أو دونما أسفٍ، حبُّ الرِّجـالِ لم يصل بعـد إلى أبعـد من هذا الحدّ.

بين كلّ خبر وآخر ، يتهيأ عمر لقول :

- أنتِ فى انتظار ولد ، و أنا يُلاحِقُنى قرارُ توقيف...

شارع كولومبييه العتيق لم يعد شارع كولومبييه العتيق. ليس عاديا أن يختلَّ الحبُّ بين ولدٍ سيجيء وقرارِ توقيف.

في المقهى الصغير الذي يستمعُ إلى الميترو وبائعةِ الجرائد ، يُصرُّ عمر على فضيلة بأن تُنهي طبق الأومليت.

فضيلة تتغطَّى بالسواد وهي تأكل . تبكي كذلك. شقاءُ الأطفال يُقاسُ في مواقف عظيمة ومعقَّدة كهذه.

جرسون ، مزيدا من الخبز، من فضلك...

لن يعرف الخادمُ أبدا بأنه يخدم أشقياء.

في شارع كولومبييه العتيق، أمام أكبر الفهارس ، كان الولدُ يَخرجُ إلى العالم كما إلجسارة.

(٩)

تقصص عليَّ فضيلة أغنية حبٍّ تتحدثُ عن الموت، عن الكآبة، عن كتاب تاريخٍ يستحيلُ إلى رواية بوليسية.

أطرحُ على نفسى هذا السؤال :

– هل كانت ستُحِبُّ عمر لو كان سُويديا ً؟

ثم أبتسمُ فى قرارتى وأنا أقول :

– لو كان سُويديا ، لَمَا كان اسمُهُ عمر . أتفهَّمُ ابنتي. صارت ابنتى . منذ الآن هى ابنتى . أنا، تصدمُنى البطولةُ . اليوم صارَ الأبطالُ كثرا . البطل هو من يَقبَل بأن يموت . وفى هذه الظروف لا سبيل إلى الظَّفَرِ بالحياة. المرضى ليسوا أبطالا، فهم يستنجدون بالأطبَّاء . و بالتالي، فإنّ كل الرجالِ مرضى.

لكنَّنى أَحسُدُ الأبطالَ.

لم يبلغُ الأبطالُ أبدا العشرين . شبابهم أبَديٌّ ، فَهُم يموتون صغارا على الدوام . يتحدَّون الزَّمن.

تنثرُ فضيلة ضفيرتها. لا أجرؤ على القول شعرَها. الرومانسية شَعْرٌ غزيرٌ. خِصلْةٌ فى شَعر الحبّ . خروجٌ مجنونٌ عن أسوار الروح، عن الصخور. جميل، جميل جدا.

تُكَرِّرُ دائما :

– فى الظروف الراهنة لا أستطيع الاحتفاظ بولدي.

لاحظتُ هذه الـ "لا أستطيع الاحتفاظ بولدي"، ولاحظت كذلك

الصوتَ الذى لا يتَّفِقُ وموسيقاه الداخلية. ودونما سابق إنذار، تقفز فضيلة بين الكلمات . يا الله ، كم هى مؤلمةٌ هذه الطريقةُ العجيبة فى الكلام .تقذفنى فجأة :

– لم تتغير كثيراً.

وَهْمٌ صغيرٌ ذو واحَةٍ وهدْنة، وسط حرب وصحراء لم أُعلِنهما...

غير أنَّها سوف تفسِدُ كلَّ شيء :

– أنتَ فى صحة جيدة .

أستنتج الآن بأن فضيلة تعانى من قِصَر النظر.

(١٠)

سـعيـدٌ أنا بكونى هلُوع . الخـوفُ والريبـةُ كـبحـا حـمـاسـتى . الشـجـاعـةُ المعهودة فى صرامـتـهـا هـى نفيٌ للشَّـجـاعـة. البطلُ، هو جبانٌ لا يعى كل الحسابات. لا يتقنُ البطلُ إلاَّ تبرير تصرفاته. لا شيء يجـمـع بين البطل والبطولة. وحـدَهُ القلبُ بطل ، كنزٌ. رغم إرادتى الطيِّبة ، فأنا لم أحسِن أبدا إقامة علاقة وثيقة بـين السَّخاء والاقـتدار. أنا أعمل. أمارسُ حـيـاتى . مـوجودٌ بفـضل الآخـرين. أتداوى بمداواتى للآخـرين. مـضَـى عـهـدٌ طويل منذُ آمنتُ بوضع الآخرين فى الحسبانٍ. بيد أنَّنى أُحبُّهم ، هؤلاء الـ "آخرين". بيد أننى سئمتُهم، كما سئمتُ وجهى المسكين وهو يرتسم على المرآة، فى خريفى ، وأنا أحلَقُ ذقنى .

ليس باسـتطاعتنا أن نكون أبطالا و قديّسين فى آنٍ. فى هذه الحالة، علينا أن نكون أبطالا وقديسين فى آنٍ واحد . ولذلك فـإنه يستحيل تواجدُ هذا أو ذاك .

بالمقابل، لا تستطيع القداسـةُ أن تبلُغَ العشرين. يُـشعرُنى الشبـاب بالإحبـاط، لأن شبـابى لم يسْعَ إلى إسـعـادى البتَّة وأنا أُقلّبُ سـاعات الذّكريات. كان شبابى شديدَ الحماقة، إلاَّ أنَّه كان يمتلك قلبا، إلاَّ أنه كان أحمقا.

سوفَ تقولُ فضيلة... لن يهمُّنى ما سوف تقولُه.

بالطَّبع سوف تقولُ فضيلة:

– على هذا الولد أن يَـنزِلَ...

أعرف الأطفالَ الذين رَحَلوا. بعضُهم كان شبيهاً بجُرم الحرب والتيفوس. أعرف الأطفال. أعرف بأنَّهم يَرَون أبعَدَ منَّا . نحنُ الأشخاص الصغار.

أقْتنى الجرائد .

(١١)

لكنْ كَلاَّ يا صغيرتي. سوف يُضاءُ هذا البيت . أعرِفُ العزب جيدا، فهم المفارَقة الوحيدة فى هذه الأزمنةِ الأخيرة. الأملُ يا صغيرتى فضيلة ، هو الوسيلة الوحيدة التي ننفى بها البلادةَ والبُلداء . الأمل، هو نوعٌ من الدِّفاع الذاتى ضدَّ العبث. وهو رائعٌ، كما الولد العنيد الذى يستسلم للبداهة.

أعرف بأن الخطأ ليس من طباع فضيلة . فضيلة حبيبتي،هى حسرة الرَّقَصات، الرَّقصات الحَذِرَة ، المتستِّرة، العاشقة، الرقصات التى تحفُّ الأوركسترا الخامدة.

كم هو غريبٌ هذا القرن !...

إنَّ جَبْرَ عَظْمِ السَّاق ، أسهلُ من إصلاح العطب حين يُصيبُ القلبَ. الحياةُ تدافع عن نفسها أكثر حين تكون رغباتُها تابعةً. الإنسان متسلِّحٌ بنفس القيمة إذا ما أراد أن يُدافع عن رغيفِه ، أو يتغنى بحقول القمح. الحربُ هى هذه الثورة ، هذه الثورة التى تطالبُ برغيفها وهى تتغنّى بألحانٍ معهودة ومقدَّسة حول حقولِ القمح.

البنَّاء يُشدو بصفيره نغما لمبنىٍ ربما لن يسكنَه أبدا. شاهدتُ ضوءًا أبيضَ يُشعِّ من الفلاحين وهم يزاولون الحصاد عند هضاب الجزائر العليا. كانوا يغنُّون. ورغم هذا، فإنَّ رغيفَهم

سوف يكون أسوَدَ. فرنسا لم تُتِح لعامل "الرُّونو" أن يقتنى الخبزَ من مخابزها البرَّاقة. هذا الخبزُ الذى لن يتذكَّرَ الرغيفَ الأسود.

عبرَ كلِّ هذه المتلازمات، عالمٌ جديدٌ سوف يطلع إلى العالم، عالمٌ جديدٌ بمستقبلٍ يُرعِبُنى وكأنه مرتبطٌ بشرط ، مستقبلٍ غيرُ مأمون. حين أُفكِّرُ فى "إمكانية بقاء مريضٍ ما لليلة أُخرى"، فهذا دليلٌ،على أنَّ لِلَّيلَة الحظَّ الأوفرَ فى الظفر بالمريض و فشل العلاج.

وإذا ما فكَّرتُ فى أنَّ فضيلة سوف تصبحُ سعيدة ، فإنَّنى أُبدى المخاوفَ نفسها. بالنسبة لي، فإنّ الأمن يُعاش فى الراهن ، إضافة إلى أنَّ الأشقياءَ دليلُ فشلٍ إذا ما هم فكَّروا كمرشِّحين يؤكدون للعالم ما مفاده :"سوف ننجح فى الدورة القادمة ". ظلم القدرِ، هو ألاَّ يَتَوافَق مع الزَّمن .

لنْ أُؤكدَ بصوت مرتفع:

– هذا البيت سوف يُضاء.

سوف أكتفى بتمنى ذلك ، لأجل فضيلة ، لأجل عمر ، لأجل كل "الفضيلات" و"العوامر" فى هذا العالم .

– أنا جدُّ مكتئبة...

كنتُ فى انتظارِ هذه الكلمة التى تختزلُ لوحدها تاريخَ هذا الوطن.

غير أن فضيلة تحبُّ عمر ، غير أنَّ عمر يحبُّ فضيلة . فيما مضى كانت كآبات الحُبِّ تُخْلَق من الأشعار اللاَّمنطقية، من اللاَّتوافق فى المِزاج، من المتاريس المنصوبة، من الحواجز التى يصعبُ تخطّيها ، من الإحساسِ من جانبٍ واحد، من الغنائية التى لم يتم اقتسامُها، من الحذرِ غيرَ المتبادَل، من تمايزٍ فى العِرق، من تمايز فى الطَّبقات ، من تمايُزٍ فى الأديان. فيما مضى كانت كآبة الحبّ أقلُّ تمايُزا منها تنازُعا. فضيلة تحبُّ عمر، عمر يُحبُّ فضيلة. يتحابَّان، هذه هى كآبة الحبّ.

– نعم ، أنا جدُّ مكتئبة .

هذا جَليٌّ يا صغيرتى ، أنتِ مكتئبة ، لأنه سيكون من غير العادى ، بل ومن الدناءة أن نكون غير مكتئبين ونحن جزائريون، أو بكل بساطة حين نمتلكُ قلبا. أعرفُ من الجزائريين من هم بلا اكتئاب ، إلاّ أنَّ هؤلاء، هم فاقدو ذاكرة. أكيد أنهم ليسوا كثرا، إلا أننى أعرف بعضا منهم. واثقون جدا من تصرفاتهم المعقَّدة الجاهلة . كلماتهم متعالية، ولا تنتابهم الشكوك...هؤلاء المساكين ! أنظروا فقط إلى الحميرِ كيف تبتسم . جلودها أُستُهلكتْ ، كُشَحُها مندوبة، وتبتسم بكل خياشيمها ، مغتبطةٌ بتسلُّلِها الواهن وبابتسامتها البلهاء التى تنبعث من خياشيمها الغليظة كدليلٍ على سعادتها القصوى وهى تلتهم الشّوكَ سعيدة ، وهى تنهق حتى بالفرنسية.

(١٢)

رأيتُ حُلماً عجيبا ، تعاطفتُ من خلاله مع قضية فضيلة. لا أُتقنُ الكتابة ، من هنا نشأ إحساسي. غير أنَّ الشقاء يخلق الشِّعرَ بحسب طريقته ، والشعرُ يناسبُنى كـ"قُفَّــاز".

صحيح ، فضيلة جميلة.

أُصرِّحُ بأنّنى فخور. أصبحتُ والدَها. الحربُ موجودة. بائعو الورود يعلنون الحرب. الورود ليست هى الحرب. الورود تَـصنَعُ أكاليل المآتم أو غار المنتصرين.

بلغنى بأنَّ عمر موجودٌ فى المدينة التى تشعرُ بالنُّعاس. تشرح لى فـضـيلة بأنه يسكنُ الآن عند زمـيلٍ له، وبأنَّ هذا الزمـيلَ لا يستطيع الاحتفاظ به لمدة أطول، لأسبابٍ ترى بأنه من غير المجدى معرفتى بها .

– لن يتعرَّض إلى أى خطر، حين يقيمُ عندك. فهمتَ، أنتَ غير معروف، وليس لديك هنا ما قد يُثير حولك الشكوك...

كانت تتهيأ لأخذِ سيجارة ، إلا أنَّها لاحظتْ عينى . إلاَّ أننى مددتُ إليها المنفضة ، كما لنباشر الخطوةَ الأولى من دون حماسة.

– سوف يمكُثُ عندك حتى يتمكَّنَ من الذهابِ إلى مكانٍ آخر.

أين يوجد هذا الـ " مكان الآخر " ؟ أتخيَّلُ وطنا سعيدا. وطنَ الكلأ والهدوء. وطنا لا وجودَ فيه للخوف. حكايةَ جنيةٍ وبُستانى عاشق وخُضار وبقّالٍ يقعدُ إلى جانب ميزانٍ أكثر عدلاً من العدالة.

صحيح ، لا بُدَّ وأنّ الحياة أكثر رغدا فى الـ "مكان الآخر". وحتى الموت . مادامَ الإنسان لم يعِ بأنَّ الموت " فى المكان الآخر " بدلَ الموتِ فى سريره شيءٌ غيرَ عادى ، فإنه لن يعى القيام بأيّ شيء آخر.

تسألُنى فضيلة :

– هل أنت خائف ؟. ما الذى تخشاه ؟

غير أننى لم أعُد أُنصتُ ، أنا فى الـ " مكان الآخر". شريطان مغناطيسيان يَفْرَغان فى نفس الوقت. أُتقنُ جيدا الامتناع عن الإنصات . أنا جدٌّ وحيدٍ لكى أتعلّم الإنصات. أشعر بالسّأم حين تكثر البداهات. قد يكون هذا، ربما، تشويهاً مهنيا. عندما أجد نفسى أمام مريض ، فإننى لا أُكلّمه أبدا . أسألُه ، السؤال لا يعنى الحوار، ولا حتى المحادثة . المواقف المعقَّدة تُحبُّ الكلام.

حين يخبرنى المريضُ :

– أشعرُ بشيء هنا ...

لا أستطيع الشعور بدلاً عن المريض . معهُ، أغيبُ فى انتظار أن يَحُلَّ مكانى كطبيب. كتابةُ الوصفةِ تتمّ بإملاءٍ منه. نجلبُ عامل السِّباكة ، كما نجلبُ الطبيب من أَجل الشفاء، هناك حتمية بسيطة، علينا أن نتعافى.

تشعرُ فضيلة بشيء "هنا ". أوَّلا ولدهاَ، وأولا عمر . الجزائر

هنا ، هى التحجُّجُ والنسيجُ الداخليّ . الوطنُ هنا، هو الذريعة والمناسبة.

ترتسم المرارة عبر فم فضيلة . تبدو الرِّعشة عليها من خلال أسنانها المتراقصة.إنها ترتدى سِروالا رماديا مشدودا إلى خصرها بعنف.

قميصٌ من النايلون الأزرق معشّقٌ بحبيبات بيضاء يُغلِّفُ صدرا سخيا. ألحْظُ خاصةً شفتيها اللتين تريدان أن تُكلِّمَاني. إنهُما مليئتان بالحياة ، هاتان الشفتان .

***

منتصف الليل فى المدينة الصغيرة، نافورةُ ماءٍ تعِبتْ من معاودة وِحْدَتِها ، أُناسٌ يغادرون قاعة السينما . لا بُدَّ وأن البحر يشعرُ بالبرد.

عند زميله يُسائل عمر نفسه . عمر ينتظر . الأشقياء دائمو الانتظار . يجمعُ الأملُ كابحه . عليكَ أن تتماسك يا عمر. لطالما أحببتُ هذا الصَّبرَ الميكانيكيّ القريبِ من البهيمية.

غريبٌ ، كلما أطلتُ النظر إلى فضيلة ، كلما اعتقدتُ أكثر فى السعادة، كلما تأكَّدَ الشَّقاء أكثر عبر هذه القناعة. منذُ لحظةٍ، حينما قالت" فى المكان الآخر"، اعتقدتُ بأنَّ المكانَ الآخر، لم يكن بُعدا مكانيا. المكان الآخر هو الزمن.

– أنت تجهلُ الأمور!...

بدا صوت فضيلة جافا، واقفا على حدود الإهانة والاستفزاز.

– أنتَ تجهلُ الأمور! تعيش فى فرنسا منذ عقد ، لم تعد تعرف لا شباب ولا شيوخ بلدِك. لقد غادرتَ...

أنصتُ إلى رنين أجراسٍ قويّ، يمتدُّ كالملاءة البيضاء. أُنصتُ إلى النافورة . أُنصتُ إلى ساعةِ حائطٍ تدقُّ إلى جانب صدغى .أُنصتُ إلى شاحنة فى طريقها إلى إيطاليا. لا أُنصتُ إلى فضيلة.أحبِّذُ الاستماع إلى نَفَسِ المدينةِ الصغيرة الخامد. أُحبذ الإنصاتَ إلى ما وراء البحر، قرصٍ قديم مجرَّح عند مدخل المقهى المغربي، المقهى المغربى الذى أعرفه جيدا ، والذى تحرسه شجرة تينٍ معمِّرة فى القرية التى أعرفها جيدا . كيف هى هذه القرية الآن ؟ كيف صار المقهى المغربى ؟ علمتُ من خلال الصحافة بأن القرية عانت، عانت كثيرا. وأنا على يقين مقابل هذا، بأنّ الشجرة العجوز ما زالت تعاندُ الوجود. و أمّا الحَمَامُ ، فقد غادر المكان...

– هذا جيد ، لم تعد تعرف لا شيوخ ولا شباب بلدتنا...

رغم كلِّ شيء فإنَّ فضيلة تقول " بلدتنا ". وهذا يعنى بأنها لم تَستثنِنِي كليَّة من طائفتها. أيكونُ هذا سهواً ؟ أنا ممَّن يؤمنون بالسّهو .

– خيارُ عزلتِكَ كان شخصيا. وخلال هذا الوقت !...

عيناها تباشران عمليةً حسابية . أُتقنُ القراءة جيدا فى عينى

ابنتي. أقرأ الجرائد كذلك، ربما لهذا، أُتقن القراءة جيدا فى عينى ابنتي.

يرتابُ صوتُها قليلا ، ثمَّ يُواصل :

– الزميلُ الذى ينزلُ عنده عمر غادر المدينة، ولذلك فقد فكرنا فيك.

هذا طيبٌ منكِ إذ فكَّرت فيَ ، ثمَّ من تقصدين بـ" نحن " ؟ أنتِ وعمر، أم الآخرون ؟ لا أُحبِّذُ ألاَّ يُفكِّرَ فيَّ إلاَّ فى المناسبات الكُبرى. أنا أُفكِّرُ فى الآخرين كل يوم . حين أُشعلُ أوَّل سيجارة ، أُفكِّرُ فى الآخرين. عند الحلاَّق، أُفكر فى الآخرين . دوما أُفكِّرُ فى الآخرين . لا أعرف إنْ كانت إنسانيَّتى تتجاوزُ هذه الصداقية الضمنية ، إلا أننى ، فى النهاية، أعتقد بأننى أُحبّ الآخرين فعلا . أُحبُّ الآخرين، إلا أننى تقدَّمتُ فى السِّن . فى حقيقة الأمر، لستُ مسؤولا إلا عن سنِّى . من دون شك، التقدُّم فى السِّن هو بمثابة المخالفة. التخلِّي، شكلٌ من أشكال الخيانة. تخليت عن رومانسيتى فى إحدى زوايا تجاربي. وأنفُرُ كثيرا من الشكاكين والمتشائمين،أولائك الذين يزاولون غنائية السَّعادة السَّهلة المنال. البطلُ لا يمتلك الوقتَ الكافى لكى يتغيَّر. البطلُ إنسان، إلاَّ أنَّ كل إنسانَ ليس بطلا.

أعرفُ كل ما تخلِّفُهُ التجربةُ من أحاسيس مزعجة تصيبُ الجرأة فى جِدَّتِها، وكذا الحماسة العجيبة . أعرف التحدّى ، إهانة

الخصلات المنسدلة على الجبهة الغِـرَّة الجميلة، الثلج في طبيعته وطهارته.. كم هو مضحك! شعرى أبيض لسبب بسيط ، وهو أنّ جافيل- الزَّمن قد أزال ألوان طموحاتى . لا دخل للحِكْمَة فى ذلك.

تدفع فضيلة بمحفظة صغيرة خضراء فوق مكتبي. تصوَّرتُ للحظة بأنها ستقوم بفتحها. إلاَّ أنها لم تواصل.

– أتَـعْلَم ؟! عمر إنسان جيّد.

لا أعرف عمر. وأنا مستعدٌ للاعتقاد بأنَّ عمر "إنسان" جيّد.

لو أن فضيلة قالت لي:

– عمر رجل ، شاب ذو قلبٍ طيِّب .حسنًا ! كنت قد فهمت هذه الجملة. أفهمُ الكلماتِ حين تكون بسيطةً ، حين لا تكون كبيرة ولا ضخمة. هذا دليل زمن . والزمن حين استوطن صدغي، جعل أذنيَّ جدُّ حساستين . لستُ مراوغا، لستُ متفرِّدا ولا صفائيا. لستُ حتى ماكرا، إلا أننى أعترفُ، وهذا يتجاوزُنى ، بأنّ الشقاء يجعلُنى أقتربُ إلى الابتسام . ولكى أُعبِّر عن ذلك ، فإنه يتوجَّبُ على المعجم أن يتزمِّلَ برداء الاحتفال المسرحى . بالنسبة لي، شخصيا، المُبهرُ فى هذا الكون لا يُبهرني. أُحبِّذُ البساطَة اليومية للـلاَّمنتهى. النسبية لم آخُذها عن أينشتاين. وطبعا،فى كواليسى العفيفة الشَّغوفة، ترقُد بعض أشعاري، كجميعِ النّاس، تحت قنديل.

المرضى الذين هم فى انتظارى ينتظرون أن يبدر منى القدر.

المساكين! لستُ سوى طبيب، مُرَقِّـعَ نوايا حسنة. بياضُ مئزرى ليس بياضا سماويا. حين أغسلُ يديَّ، أرتدى القفّازين ، حين أقول بشكلٍ شبـه آلى " أربعـقطرات لرقم اثنين"، حين أنحنى بنظرة واحدة تجاهِ مسؤول التخدير، حين أُصبِحُ طرّاز أمنٍ وخيّاطَ صبرٍ، فإننى أُحاول تخفيف الأضرار. فى مهنتي، لا شيء أهمُّ من الحياة. أنا ميكانيكى عجوز. أُعيدُ تحسينَ العتاد. لديَّ رخصة قيادة صحَّة الآخرين.وتقنيَّتى هى بمقاس ما يُخبرنى به الإحسان.

لا أُحبّ أن أُهان فى عملى . ولا أفرض على أيٍّ كان أن يثق بى . أُحاول ألا أكون خجلا.

لستُ ملزَما بتقديم أيَّ حسابٍ لسلك الأطباء. لم أقسم أمام هيبوقراط، ولكن أمام الخوف من البلادة. أنا حاصل على لقب قوَّةٍ عمومية. فى سنِّى هذه ، كتفاى المقببتان تشهدان على . لستُ مُلزما بتقديم أيَّ حساب إلا تجاه شعيرات رأسى البيضاء. الشعيرات البيضاء هى الدَّليل الدامغ على ضريبة إحسانى .

أنا طبيب لأننى عجوز. أنا طبيب لأننى أُحبُّ العائلات. أمنح الفرحة للعائلات ، أوطِّدُ علاقاتهم . يأتون لرؤيتى لكى يهنِّئونى على إعادة فردٍ منهم إلى عائلته. وعلى هذا ، فإنَّ لشيخوختى دوما، طعم الرَّبيع.أبدا لم تكن الغابة أكثر جمالا. خواء الكوسموس، أغنياتى المترنِّحة، المنبذرة، فى خطر، على الأقل هديتي الخالصة...

الوريقاتُ الأبدية، التُّربة العضوية التى تراكمت عند الحديث، أبدا لم تكن الغابة أجمل من لحظة خمودها، ثمَّ توالدها من جديد.

وها هى ذي، هذه الصغيرة المُتَعِبَةُ الجميلَة، تطالبنى بأن "لا أُبقى عليه"!..

- ولكن ، تَـكلَّم ! انطق بكلمة !

أطبقُ يديَّ، وأنظر إلى ابنتى .أُشعلُ سيجارة . لا بُدَّ وأننى أبدو وقحا. عيناها تحكُمان عليّ .

- ولكن تكلَّم ،قل أيَّ شيء!..

نبرات صوتها تعلو.

لا ترتجفى يا دُميتى ، لستُ عدوا لك.

من اللاّئق أن يثورَ الولدُ. أستحسنُ الثورة، وحتى الوقاحة . إلا أننى لا أغفر الكلمات البذيئة.

لأنَّ هذه المحاكمة لن تذهب بعيدا، وأنا أتقزز من المحاسبات.

أُحبِّذُ الحلول.

(١٣)

- عليكَ أن تُـخفى عمر.

أوه لاًّاااا...هذه الثَّورة السيِّئة التربية !..

فى عهدي، كنَّا لنقول " بعد إذنك والدي، عليك بإخفاء...

ولكن، فى عهدي، هل كانت الثّورات تتأتّى بالمجاملة؟

شيخوختى تؤلمُني.

– ولكن تكلَّمْ . قلْ أيَّ شيء.

أواصلُ ضمَّ يديَّ على المكتب. أنظر إلى ابنتى . نهـداها الصغيران مكوَّران .

الدكتور كُوسْتْ ، الدكتور كوسْت صديقٌ أبدى .أفكّرُ خاصة فى الدكتور كوسْت. كانت سَحنَتُه شاحبة .

– عليك أن تُخفى عمر...

هناك بعض التشكُّلات اللُّغوية التى لا تروق لى . قد تكون العاميَّةُ اختزالا لبعض الأفكار. إلاَّ أنها لن تغدو أكبر من كونها بذاءة، وبخاصة حين تَبدُرُ من المرأة.

– أنتَ مدينٌ لى بهذا على الأقل .

البذاءةُ تجاوزت الآن حدودَ الشَّتيمة. إذن، وعلى سبيل المثال، أنا مُدانٌ لكِ على الأقل بهذا ! للعبارة الشعبية جانبٌ من الصحَّة، يخلص بمرارة إلى ما مفاده: لم يَعُد هناك طفل...

جيلٌ ينظُرُ إلي جيلٍ،عبرِ الحوار المستحيل للمبارزة. جيلٌ يتكلّمُ إلي جيل. جيلٌ يصمِت. ليس بمقدوره إلاّ الصمت. تتجاوزه الأحداث. جيلٌ يُقاضي جيلا ، ويصدِر حكمه . أُدرِكُ هذا جِيدا.الخريف في قفص الاتهامِ وما عليه إلا أنِ يستذكر. في حين أنّ هناك شيئاً يشغلنى، شيئاً يهربُ منى. هذا الجيلِ الذي يقاضي ويحاكم جيلا آخر، هذا الجيل الذي يتحدّثُ عنِ مستقبلٍ يُخرّبُ مراكبه نوعا ما، لأنه يحدّد ذاته، ثمّ يتوقف من ثمة عن طواعية.

الإجهاضُ هو المَمَرُّ المسدود، هو الطريق الذى لا مخرج منه.

بحقّ ، إنه يتوجَّبُ علينا فى الظروف الراهنة أن نصنع أطفالا مثلما نصنع التحدّي.

فى هذا العالم المجنون، لا شيء يبعثُ فِيَ الطمأنينة مثل وجه طِفْل.

(١٤)

صائفة ١٩٤٠ . كنتُ طبيبَ كتيبة مجنونة. لماذا أسموا هذه الحرب بالـ " حرب الطّريفة " ؟ ما كانت أبدا طريفة هذه الحرب، وإلا فإنَّ كل الحروب، كانت ستبدو كذلك. باختصار،كُنت طبيبَ جيشٍ عُواء. كُنَّا فى خندق ، فى إحدى قرى الشرق الصغيرة. لا أحد يحتكم إلى أمرِ أحد. العمليّات الجراحية كانت تهطلُ صبحا ومساءً بوسائل تنعتها سخرية اللغة الفرنسية بالـ"ثرية". القصف لم يكن ليتوقف. ساريتى كانت تتموضع فى مدرسة تحوى قسماً واحداً ، وعلى السبُّورة التى لم يخطر على بال أحدٍ محوها، كانت عبارة خلَّفها المدرِّسُ تقول : " الضمير الهانئ مخدَّة مريحة "، وتحت هذا القول المأثور، أشارَ المدرّس : " مثلٌ روسى ."

لم يسلم مكانٌ فى هذه القرية –سقطَت قذيفة فى ساحة المدرسة ، فانتزعت كامل الفناء – ولم يتبق من هذه القرية إلاَّ جدارٌ عليه بورتريه الماريشال ليوتى ، الذى دشَّن البناية بوصفه من اللُّورين و"ماريشالا" فرنسيا.

ذات يوم، بعد أن أتاحَ ليَ القصفُ والمرضى بعض الرَّاحة، قمتُ بجولة فى هذه القرية التى هجرها أهلُها وبهائمُها. كانت كل القرية منكوبة ، وكان بيانو يرقدُ قرب حيطان البلدية. حتى فى الشقاء هناك بعض السُّريالية، وحتى المقبرة لم تكن فى مكانها ، لم تكن لتعكس ذلك الهدوء الذى نَعهَدُه عادةً فى مكانٍ كهذا، كانت

رقصة الرُّعب تضمُّ إليها أشجار السَّرو والأكاليل. وأمَّا جرس الكنيسة الذى انهار إلى جانب القبور المبقورة، فلم يبد منه إلاَّ أعلاه الذى كان يقود مرقص عالمٍ ما يتداعى إلى نهايته.

سخرية لا يمكنُ شرحُها،لافتة إشهارية تنصح بـ" تذوُّق خمر اللُّورين".

هنا أيضا كانت العبثية، هى قائدُ المرقص.

واصلتُ جولتى الحزينة،وكنت أردِّدُ، بأن الحرب هى أعتى ما يمكن أن يصله الإنسان من خروجٍ عن المعنى. فجأة ، وعند مخرج القرية،عند أعالى نهرٍ يستغرب انهمَارَهُ الدّائم، إذ بى أقف قبالة عجوزٍ يعملُ فى حقله الذى كانت تتآكلهُ النيران. كان عجوزا سبعينيا قويَّ البنية، أصهب الشَّعر.عند اقترابى منه، لم يرفع رأسه تجاهى إلاَّ قليلا . كان وكأنما يحيا فى عالمٍ آخر. لم أُمانع فى سؤاله عن جدوى إصراره على العمل فى حقل مزرعةٍ تشتعلُ فيها النيران ، علمًا بأن الجنود الألمان كانوا على مقربةٍ ، وأنهم سيحلُّون بين الفينة والأُخرى، وأننا نحنُ ذاتنا، تسلمنا أمرا بإخلاء المكان .

نظر إليَّ، وهو فى الغياب، وإلى مزرعته التى تحترق، ثم انتهى إلى القول:

– ولكن، عليها أن تنبُتَ رغم هذا !!

(١٥)

إنِّى أرى الدكتور كوسْت وهو يصعد . سوف يغسل يديه قبل الجلوس إلى يمين الله . هذا الاغتسال هو دليلُ طُمأنينة. إنى أراه يأخذ مصعدا عجيبا. إنه كعادته دقيقٌ فى كل شيء، ومُحبٌّ للحياة:

– أُعَرِّفُكَ بنفسى ، أنا الدكتور كوسْت.

ينحنى الدكتور كوست، ثم تبدُرُ منه ابتسامتُه الصغيرة الذكية الطيِّبة. امتثلَ أمام الإله الطيب بالمئزر الأبيض. يداه ترقصان على وقع الأناشيد التى تملأُ السَّماء .

أشعُرُ بسخونةٍ طفيفة . فضيلة تُثيرُ سخطى . تُشعلُ سيجارة فلتفعلْ ما تشاء!

– حين يعود السَّلام، سوف أتزوجُ عمر، وسوف ننجبُ أطفالا. حينها، سيكون بإمكاننا إنجابُ أطفال...

غريب ! سوف أُنهى خدمتى العسكرية ، سوف أبحثُ عن شُقَّة، سوف أُقتصد بعض المال ، سوف أُرسَّمُ فى عملي.

ثم أتزوَّج !

أعترفُ بأننى لا أُحبِّذُ هذه الاحتياطات وهذا الاحتراز، وهذا يعنى حتما بأننى لم أشخ كثيرا.

الحبّ الذى يدَّعى التعقُّل، لا يبعثُ فِيَّ أية طمأنينة. لا حقيقة وسط هذه القصّة كلها إلا الطفل . وفضيلة تجهلُ ذلك. الفلاح اللورينى العجوز ، أشار إليَّ بالذى يجبُ فعلُه. كان عجوزا جريئا،

قوَّةً دائمة وسط انهيارٍ مفاجئ ، تأميناً على الحياة ، انتقاما من الموت ، ابتسامة هادئة وسط عالمٍ مضطرب.

فضيلة لا تتقنُ إلاَّ الإهانة، وهى أيسَرُ وسيلةٍ لبسط أوهامها.

ليس بإمكان المنفي أن يلِد سوى المرارة ، إلا إذا ما تحركنا بشكلٍ حقيقى.

(١٦)

رغم ذلك فإننى أحببتُ اللّيل، لماَ يجلبُه لى من وحدةٍ وتأمُّل . إلاَّ أننى لا أُحبُّ رؤية الظلام فى عَيْنى ابنتي. الليلُ لا يجعلُ العالم سوادا فيَّ . الليلُ هو النظام حين يعود إلى العقل وإلى المدينة . هو سلمُ الشجعان .

الليلُ كانَ شبيها فى داخلى بأفعالِ الجن. كنت فى قريتى أتأمَّلُ مجيئه عبر شجرة التين المُعمِّرة. أحببتُ ملاحظَته، حلَّ ألغازه. كان جميلا. كنت أُؤمن بالليل الذى يُمارسُ الحبَّ والصلاة. والليلُ، كان يُنيرُني. فلنخترع القمرَ، سوف أُصبح شكَّاكا. لقد تذوَّقتُ نورَ قمرِ حُزنى . هذا المساء سوف أنصتُ لابنتى ، سوف أتمعَّنُ فيها عميقا. أريد حصَّتى من اضطرابها ، أريدُ أن أكون بمثل سنِّها.

عمرى ..هو عُمر الليل .

أمام ابنتى أنا فى تأمُّلٍ عميق لوحدتى .

أختلق حناني، لكيلا أشعُرَ بالبرد الشديد. أحيطُ نفسى بالصمت وبالليل. العجوز الذى صرتُه لم يعد يحبّ التفاصيل كثيرا. أُسمِّى تفاصيلَ ، كلَّ المشاكل الواهمة .

غدا سوف اقصدُ المشفى. غدا صباحا وبعد الظهيرة سوف أُرافق الدكتور كوسْت. لن أنسى كذلك زيارة تلك السيدة الطيبة، مدام سيمون . مدام سيمون ليست مريضة ، هى عجوز. مهنتى

تؤكد أكثر على العلاج منها على الشفاء. ثم أعرّج على الخريف، لأتأكد من أنه تخلَّص من نواياه . سوف أعرّج على البحر لأرى إن كان قد تعب من تكرار نفسه. سوف آخذ وحدتي لتتجوَّل وسط الأوراق الميتة. سوف أتناول قهوة عند " ليون "، سوف أسألُه عن أحوال صغيره. ربما، سأذهبُ كذلك إلى السينما. والتقرير النهائى سوف يتم داخل الأوراق الميتة.

– ولكن تكلَّمْ . قلْ أى شيء !...

لساني أسلَمْتُهُ إلى القطط ، القطط التى أتصورها فوق أسطحِ المدينة الصغيرة. !القططُ الشبيهة بهياكلها المنكسرة بلعبة الظل الصينية ، التى ترتسم على شاشة الأُفق.

– ولكن تكلَّمْ ، قلْ أى شيء !...

الدُّخان يتصاعد بلونٍ أزرق . للدخان ذوقٌ رفيع.

– من المهمّ جدّاً ، ألاّ يُلقَى القبضُ على عمر...

ألاّ يُلقى القبض عليه.

غابات " السُّولوني" و طائر الدّرج... لم تُعلَن الحربُ بعد ،ولكنَّ موسم الصَّيد قد ابتدأ اليوم .

– هذا الولدُ ، سوف يُعقِّدُ كلّ شيء ...

لهذا الولد قيمةُ القدر!. فهو الذى يخلق التاريخ إذن؟

يا دُميتي، أنت تتحدَّثين عن هذا الولد، وكأنه قد جاء إلى هذا الوجود. فهو موجودٌ إذن. فهو مخلوق إذن. فى الحقيقة، فى بطنك، وفى بطن التاريخ. وما الذى باستطاعة هذا الولد أن يُعقِّدَهُ ؟.

على العكس من كل هذا ، فإنَّ الولد سوف يُبسِّطُ كل شيء. إنه يعيدُ الفكرة إلى بُعدها الأول. يتحرّك، ويدفع بالآخرين إلى التحرُّك.

حينما تصمُت فضيلة ، فإنّنى أستمع إلى مُواء الليل. الخريف يصدُّ الكون، يدَّعى الحكمة ، بيد أننى أعلم بأنّه، وعلى بُعد خطوتين من قلبى ، خلف مكتبى ، خلف البحر، يوجد ربيعٌ صموت ، يعانى من عشرينياته.

يا ربيعيَ الصّغير المسكين ، أريدُ أُن أجعلك تنامُ فى جوف حنانى . أن أخترع لأجلك حكاياتٍ لا تبتدئ بحروفٍ نافرة، أن أُدفئَك بحنوّ، يا حبّى الصغير الذى اصطبغتْ عليه ألوان الثلج. يا ربيع شبابى الصغير، أَطْفِئ عقبَ سيجارتك، وتعالَ إلى والدك لتخبره بأنك تُحبّه، وبأنك ترغبُ بالبكاء . تعال ، سوف نعتذرُ للّيل.

ابتسمى لى يا فضيلة، ابتسمى لى يا ربيعيَ الصّغير المسكين. ألا تشعرين بالدفء فى أحشائك لأنك تنتظرين ولدا ؟

هذا الولد، سوف يُعقِّدُ كل شيء !...

إنها فكرةٌ ثابتة، باستطاعتنا أن" نُسقط الولد "، وليس باستطاعتنا أن نسقِطَ فكرة.

– هل تفقه ...؟

لا أفقه شيئا يا ربيعى الصغير . أنا أتألم .

عبر منعرجات بوِ طالب (١) ، كنتُ أمتهن التذكّر . أجملُ ما قمت به في حياتي هو أنّه كان لي أن مارست التفكير أحيانا. يبدو لي هذا الآن ككذبة، لشدة ما بدَت لي تلك الذكرياتِ بعيدة. أستذكرُ طيور اللّقلقِ ومدرسة بيضاء. كانت هناك دائما مدرسة بين ماضيَّ وذاتي. أذكرُ طيور اللّقلق والحلزون. أحدُ رؤسائي أراد مضايقتي ذات يوم، بقوله مبتسما :

– احترسْ من احتلامكِ بالحيوان...

بالنسبة لي ، فإنَّ طير اللقلق والحلزون علامة على دوام الهدوء إلى الأبد . حين يُباشر الأول رقصة الفالْس، يتشبَّثُ الثاني بالصّخرة.

لقلقٌ وحلزون ، زميلاي المعاصران . مُريداي...

كنتُ أتحدَّثُ إليكَ يا دكتور كوسْت . كنت أُحدِّثُك مراراً . يا الله ، كم كنتَ تتقنُ الابتسامة !! كم كنتَ تتقنُ التعلُّمَ سريعا !! كنتَ تعتقدُ بأنني من الصنف الذي يحسن الخيار .

كنتُ دائمَ التردُّد .

لن أغرس أبدا شجرة تينٍ معمِّرة ، إلاَّ إذا صارت ابنتي ابنتي وتمكَّنَ حفيدي من أن يَزْرَعَ ويُنبِتَ الغابات .

(١) بوطالب: دوّار في الشمال القسطنطيني.
البوطالب،ليس إلا جزيرة في ذاكرتي . الماضي يستعصي عليَّ، المستقبلُ يحاكِمُني. لستُ متأكدا من أنّني لا أجسِّد الدكتور كوسْت. هذا الرّجُل الصّغير، صاحب الضّحكة الذكية الطيبة،والذي كان يردّدُ على مسامعي وكأنما ليضعني على وزن اعتقاده و تواضعه :

٦

هذا المساء ، وأنا أستمعُ إلى فضيلة ، أشعرُ وكأنَّنى أتحدَّبُ كالغصن الذى يشكُّ فى ثماره.

– الله، هذا الإله الطيب يا دكتور إيدير، هو أيضا أنا، لأننى أؤمن به...

ربما لم أُحسِن الإحساسَ جيدا بالله وأُحبَّهُ، ربما تنقُصُنى بعض التربية ، فلم أعرفه إلا متأخِّراً . أنا من الذين خرجوا عن الصفوف، عصاميٌّ علومٍ سماوية، مترشِّحٌ عجوز نوعا ما ، مترشِّحٌ بحاجة إلى شهادة إعفاءٍ من الامتحان الأخير.

– هذا الولدُ، سوف يعقِّدُ كل شيء...

غالبا ما يكون إشعال ثورة، أيسر من الحصول على ولد.

الأعصابُ لم تعد تتكلَّم، الثورة لم تعد تتكلم ، الضغينة لم تعد تتكلم.

موضِعٌ ، موضعٌ أيا قلبى ، موضِعٌ للحب ! هذا هو الحبّ. أعتقدُ أنه من الواجب أن نُحسن الصِّراع جيدا حين يكون لدينا ولد، أن نُحسِن الصراع، أى أنَّ علينا أن نصارع من أجل الخير.

أعلمُ بأنَّ أرباب عائلات قَتَلوا أرباب عائلات. أعلم بأنهم ما زالوا يقتلون أرباب العائلات. أعلم ذلك، ولكنَّ هذا لا يُثبتُ شيئا سوى أنَّ الإنسان ناقص، سوى أنه ما زال ملعونا، سوى أنه، لم

يعرف بعدُ كيف يشترى نفسه. أيٌّ نقصٍ فيه اهتدى إلى علاجه، وهو المحنَّكُ فى إرسال أشيائه إلى القمر، وهو الذي يأمُر الطبيعة كالمروِّض المتعجرف الذى يُملى إرادتهُ على الأباطرة الذين تمّ استعمارهم فى الأدغال والغابات؟...

حضور ابنتى هكذا، لم ينشأ فيَّ بفعل التأمُّلَ فى الإنسان.

أفكِّرُ فى ذلك السدّ الذى طالما قصدتُه لأجل التأمّل.

(١٧)

يوجدُ على بُعد بضعة كيلومترات من المدينة الصغيرة فى مرتفعاتها، عند هضبةٍ تصرخ غضبا ، سدّ .

السدّ يرتفعُ متحديا الجبال. عاليةُ النّهرِ بزرقتها تمتدُّ حتى المداخل الضيقة التى تمتلئُ شيئا فشيئا. الأشجارُ الميتة تؤشر إلى المستوى الذى يصلُ إليه النّهر، هذا المستوى الذى يبلغه شتاءً إثر الأمطار الغزيرة. فى الأسفل، يرتطمُ الشلاّل بمجدٍ من الماس. هذه الأشجارُ التى كان بإمكانها أن تعطى الكثير من الفحم الحجريّ خلال قرونٍ طويلة،هى الآن ميتة. بفضل جلالة الإنسان ، اخترعَ الماءُ الفحمَ الحجرى الأبيض. ماتت الصُّخورُ، تغلَّب عليها الإسمنت. الصّمت ذاته مات. عظمةً .. ولكنَّ هذا الصمت ليس هو أبدا السّلام.لا أحبُّ أن أشرحَ لنفسى لماذا تختلجُنى بعض المخاوف والجزع، كلما عدت من ذلك السدّ.

ذات يوم نزلتُ حتى حافة البحيرة، وهنالك ، فجأة، فهمتُ. الماء لم يكن يدوِّى فعلا . الماء والصّمت لا يظهران للعيان، لا يشدوان . لم أستطع منع نفسى أبدا أثناء تجوالى على حافة الماء من الإحساس بالرغبة فى السّباحة، من غطس يديَّ ورجليَّ دون أن يقوم قاربٌ بالتجديف على ماء قلبى الرومانسى . وأمّا هنا، فإنَّ كل شيء مختلف.

إنّها بحيرة اصطناعية، إنها رؤيةُ الزجاج فى عيون ضريرٍ

خزفية ملوَّنة. لا شيء يعلن لى مجد الله. ولو لم أكن على علمٍ بقيمة الأرواح التى لقيت حتفها لأجل هذا العمل الفنى النابع من نبوغ العقل البشري، والذى يعود إليه بالفائدة ، لكان هذا الصّرح ، قد أثار عميق اشمئزازى . لا أرغبُ بالصلاة وأنا أنظر إلى هذا السدّ، لا أرغبُ بالصلاة أمام قاطرة،لا أرغبُ بالبكاء ، بالابتسام ، وليس باستطاعتى سوى أنْ أصفِّق، أن أُصفِّقَ دون أن أكون مشدوها. العقيدة تؤسِّسُ الكاتدرائيات. الحاجة تخترعُ قاطراتٍ. أنا طبيب أؤمن بالعلم ، بالتِّقانة، إلا أنّ العلم والتقانة، يبدوان لى متمايزين، إذا خليا من الروح . أقولُ روحا، وليس ضميرا ، روحا ليست فى حاجة إلى مصعدٍ إلكترونى لكى ترتفع إلى الجحيم أو إلى الجنة .

هناك وحوشٌ خطَّطت جيدا لوضع أسسٍ للهدم.

إذا ما مكنَّا هذا العلم الجامد من العمل ، فإننا سوف نكتفى بوضع عشرين فرنكا فى آلة موسيقية لأجل الاستماع إلى القدَّاس مستقبلا والقول : لقد ذهبتُ إلى الكنيسة . صلاة الجمعة سوف تتأكدُ هى الأُخرى بوضع عشرين فرنكا فى خردة الموسيقى تلك والقول : لقد ذهبتُ إلى المسجد ، وتبعا لذلك، فإنَّ جان دارك هى الأُخرى سوف تكتفى بالإنصات إلى أصواتها القدس عبر الهاتف، وعبر التلفاز سوف يتراءى جبريل إلى النبى محمَّد . طبيبٌ أنا، ورجل تابعٌ إلى هذا القرن رغم كل شيء ، وأُقرُّ بالعلم .

أنا بحاجةٍ إلى هاتف، إلى فحصٍ بالأشعَّة، إلى علاجٍ بالكَيّ، إلى مشرطٍ كهربائى . أُحيِّى التطورً دون أن أُشيرَ إليه بعلامة تكبير، وأؤمن قبل كل هذا، بالمُعجزة!...

فى النهاية، الأمر لا يتعلَّق بالمُختَرِع، بالمهندس المعماري، بالرسَّام، بالمهندس الذى عليه أن يُصادق على أعمالهم الفنية.

فهم لم يكونوا ، و ليسوا، سوى يد الله .

أتفهَّمُ الآن كلمات الدكتور كوست.

– الله يا دكتور إيدير، الله الطيب ، هو أيضا أنا بصورة ما...

أنا على يقينٍ بأن الإنسان الآلى سيقوم ذات يوم بعمليات جراحية فى دقة العمليات التى يقوم بها الدكتور كوسْت اليوم .

إلاّ أنَّه ، ومهما بلغَ كمالُ هذا الإنسان الآلى ، فإنه لن يحصل أبدا على الابتسامة الذكية لصديقى الدكتور كوسْت.

تلك الابتسامة التى تشعُّ من نجمته .

(١٨)

– بما أنك طبيب، فأنت على علم بأننا لا نواجه أيَّ خطرٍ اليوم بلجوئنا إلى المضادات الحيوية من أجل الإجهاض.

إذاً، ها هى ذى تدرِّسُ ليَ الطبّ !. قد أكون شُخصيا عجوزا ربما، إلا أننى على علم يا دُميتى بوجود المضادات الحيوية.

أُفكِّرُ فى عبارة : صُنَّاع الملائكة ، وأُقرُّ بأنَّ هذه العبارة شديدة الجمال ، ومحرِّكة للمشاعر ، وعادلة ، فقد كان هنا أميرُ الظُّلُمات الحيَّة والمنظَّمة ، الظلمات الحيّة كما ارتجاج الفجر الذى ما زال فى إغفاعته التى لا مفرَّ منها. علينا ألاّ نقتل البتة الصّباح الغرّ.

رغم ذلك، فإنَّ فضيلة تُشعل سيجارة، ومن جديد، أقرِّبُ إليها المنفضة.

كيف سمح لها عمر بالتدخين ؟ صراحة، أنا خارج اللعبة ، وهنا أيضا، أرتكبُ خيانة.

أتصوَّرُ كيفَ هو عُمر .أعترفُ بأننى أتمنى بأن يكون جميلا ، أصيلا، لأنَّ ابنتى اختارته.

– كان فى الصّف الثالث طِبّ...

فوق كل هذا فهو رفيق مستقبل إذن !

– عائلته من تلمسان ...

أتصوَّرُ كيف هو عمر، ثم أستنتج : يُحبُّ ابنتي ، ابنتي تُحبُّه زاولَ الطبّ ، وهو من تلمسان ، إلا أنَّ هذا لا يؤكِّدُ لي إن كان جميلا ، طويلا أم قصيرا، طيبا أم شرّيرا، إن كان يؤمن بالله أم ينكره ، إن كان مجتهدا أم كسولا. خلِصتُ إلى ما يُسمى في الوسط البوليسي أو الصحفي بالبورتريه روبوت ، وما أصبو إلى رؤيته عبر هذا البورتريه ، ما أريد رؤيته ، هو وجه شابٍ جدير ومتألِّم ، وذي إرادة طيبة ، محبٌّ لوطنه ولابنتي ، ويرغبُ في مواصلة دراسته. بيد أنَّ الحرب قَدِمَت ، وأنا لا ألوم عمر على أيّ شيء ، أنا لم أره من قبل. لا ألومه على مُمارسته السياسة ، على حبه لابنتي، – إلا أنَّه يستأهل قَرصَةَ غيرةٍ عابرة على أذنه .أنا لا ألومه على ترك دراسته، فدراسته هي التي تركته. لا ألومه على حمل فضيلة ، ولا ألوم ابنتي على حبها وما آلت إليه أوضاعُها اليوم. إلاّ أنَّ الشيء الذي لن أغفره لهما أبدا هو أنهما فكرا في "إسقاط الولد" ، هذا الولد الذي دعياه بحرِّ قرارهما إلى المجيء . لن أغفر لهما فكرتهما في طلب إسقاطه من قِبَلي . أنا الوالد . أنا الجدّ . أنا الذي قاربتُ أن أُصبح أبا روحيا. لن أغفر لهما أنهما فكرا في أنني استطيع " إسقاط الولد".

نعم ، هذا جيد، أنا أتفهم هذا ، أتفهمُّ الثورة ، إلا أنني لا أتفهَّمُ الإهانة.

ولكي أكون أكثر صراحة، فإنني ألوم عمر على سماحه لفضيلة بالتدخين.

(١٩)

و لكن تكلَّم ، قلْ أيَّ شيء ...

الرُّعب الأكبر هو أننى أُكلِّمُكِ يا فضيلة ، أردّ عليك. آهٍ لو كنتِ تقدرين على القراءة بين أسطر صمتي، بين أسطر تجاعيدي، فى مخطوطة شَعْري.

– إذا أنا أحسنتُ الفهم، فأنتَ لستَ موافقا، رغم أننى أقصدُ خدمتكَ لأوَّل مرة. إذا كنتَ ترفض القيام بهذا شخصيا،فجِدْ شخصا آخر إذن. أنا ابنتك،ابنتُك قبل كل شيء.

تنزلق من جديد فى بطن الأريكة، يرتفع صدرُها على إيقاع غضبها. قليلٌ من الهياج القلْبي، هياجُ متوارَث، وهنا أنا أتعرف على دَمِي .

– أنا ابنتُكَ قبْل كلّ شيء!...

أكادُ أبتسم لشدة مناداة الكلمات للكلمات، لشدة ما يبدو جليا بأنه حفيدى قبل كلّ شيء. أحتوى ابتسامتي. أحترمُ كثيرا انفعالاتِ فضيلة ، لكن يبدو أنها انتبهت لابتسامتي:

– آَملُ ألاّ يكون هذا ما يغبِطُك!..

أشعر بها عند حافة البُكاء، إلاَّ أنَّ أنَفَتَها الكبيرة تمنعُها عن ذلك . ما زالتْ صغيرةٌ على البكاء، على عدم الخجل من البكاء. اليوم، صارت "الفضيلات" اللائى يعانين من الكآبة تُفضّلن تمرير المنديل فى السرّ. ولكن،ليست الأيدى هى التى نبكى بها. اليوم

صارتْ "الفضيلات" اللائى تعانين من الكآبة تُفضلن إشعال سيجارة... دُرَرٌ صغيرة رائعة سوف تولد من عينيك،عينيك الجميلتين اللتين تعتقدان بأن كل الآفاق عدوانيةٌ، عينيكِ المنتجِبَتين فعلاً ، بكل تأكيد، وهذا لن يُشفيك فضيلة ، إلا أنَّ هذا سيهوِّنُ عليك .

من جديد أقرِّبُ إليها المنفضة ، أقدِّمُ إليها سيجارة .

– شكرا ، لديَّ سجائري!...

بلهجة صارمة !! أين سوف تسكنُ الأنَفَة ؟! أخيرا... أكذوبة السَّلام لن تبدر هذه المرَّة . ولكن ما الذى ألحْظُهُ ؟ فضيلة تضعُ صباغا أحمرَ على أظافرها، يا إلهى ! لو أنَّ والدى المسكين رأى حفيدته، والدى الفلاح الجرجرى(١) الجريء، الذى أهانَتْه حادثةُ ركوبى الدْراجة ذات يوم ، مرتديا تبَّانا. وحتى بعد مرور العديد من السنوات، ما زال شيوخ القرية يردِّدون :

– ابن سِى أعلْـِى ـ إذير، ذلك الذى يدرسُ فى فرنسا لكى يُصبح طبيبا، يلبس تبانا كالأطفال رغم شاربِه الكثيف ، وبلوغِه سنَّ الزواج.

والدى المسكين لم يسامحنى أبدا على هذه الحادثة، وكان فى كل سنةٍ، حين أقصد الديار، لا يُضيِّعُ فرصة تذكيرى بها .

(١) جرجرة: منطقة القبائل الكبرى ، فى الشمال الجزائري.

فى الحقيقة، أعتقد بأنّنى أبدا لم أكن فى مكاني. بأننى أخطأتُ عصري. لشدَّة ما نحترف ركوب الخيل، لشدَّة ما نحترف التمايل ، فالتاريخ أراد لى أن أكون دائما على صهوة جوادَيْن، أن أعيش فى عصرين، على حافة حضارتين.

صباغٌ أحمر على الأظافر، سيجارة ، سيجارة غولواز فى فم هذه الجزائرية الجميلة ، لكْنَةٌ خرجت لتوِّها من سماء اللُّوار(١)، كلماتٌ فرنسية للحديث عن عالمٍ عربي، عيونٌ سودٌ بكل ما يحمله أفق آفاق بلَدِنا ، خَيّاطُ لستُ أدرى أية طالبة يتناول قهوةً بالكْريم في شارعْ سيفلو، قلبٌ صغير وعقل صغير، يعرفان فى آن مارتن دوغار ومحمَّد ديب معا، ذاكرة تنشدُ جَيِّدا أشعار إيلوار مقارنة بأشعار كاتب ياسين، ذهنيةٌ عاشَرَت بيرغسون أكثر من مُعاشرتها للشيخ ابن باديس، معجونُ أسنانٍ وليس " سِواكًا ".. كيف، كيف لى أنِ أجد نفسى وسط كلّ هذا ؟!! ..

– صريحُ القول ، تُريدُنى أن احتفظ بهذا الولَد إذن ؟.

هذا الولد ! كـــأنما هو ليس ولدكِ ، كـــأنّمـــا هو ليس فى أحشائكِ.

ثمَّ تواصِل :

– أنتَ تفضّلُ أن أحتفظ بهِذا الولد، علما بأنّنا ، نحن الاثنان،

(١) اللُّوار :منطقة فى الشمال الفرنسي.

عمـر وأنا ، بلا وضـعية ، بلا سكن ، نتـواجـد فى خـضـمٍّ حـرب طاحنة. ولكن اعترف، أنت ترغبُ فى أن أحتفظ بهذا الولد !..

بما أنـهـا تأمـرني، بما أن ابنتى تُملى عليَّ ، فـإننى سـوف أرضخُ للاعتراف.

وأهزُّ برأسى لكى أقول : نعم .

- كم يُمكن أن يجمِّلنا الغضب !

***

نهضتُ لكى أفتحَ النوافذ. الدخان كثيف فى المكتب، كثيف كما الأفكار التى تستوطن رأس فضيلة. وهنا يكمن كل شيء ، فنحنُ لا نستطيعُ فتح فكرة كما نفتح نافذة ، ونحنُ نعيدُ نقل تلك السّحب التى تحاصرُ ناصية أبنائنا إلى مكانٍ آخر، ثم ننفثُ فى تلك السُّحب مثلما كنا نفعل سابقا.

فضيلة ، حينما كان يصابُ أصبعكِ أو تصابين بحرقٍ ، كنت أنفث على جرحك الصّغير.

- بيييففف...انتهى ، انتهى الجرح الصغير ...

الجرحُ الصّغير لا يزال رابضا ، إلا أنكِ لم تعودى تتألمين . كنتُ أنفثُ فيه، و كان يعادل كلّ المراهم .

اليوم، يا فضيلة ، لم تعد فيّ تلك الطاقة، الجرحُ غَدا أكثر

خطورةً، صارت رياح العواصف الهوجاء هى التى تنفث فيه حتى يلتهب.

ألجأُ إلى الشّرفة . أرمقُ المدينة الصغيرة . تقابلنى الحديقة العامة بحواف أشجار الدُّلب فيها وهى تمارس غضبها برقصة فاترة تنبع من سلطان وحدتها. قشور الأردواز التى تغطى أجراسَ الكنيسة تعكس ضوءاً أزرقَ وخجولا. تقرع ساعةٌ فى برج البلدية. اللحظة امتدَّت إلى أبعدَ مما كنتُ أعتقد. فضيلة، لم تبرح أريكتها. أشعر بنظرتِها تخترق كتفيَّ.

قريبا من بيتي، تواصلُ الشّاحناتُ مرورها ، وعند نهاية الشارع تخبو أضواؤها ومُحرّكاتُها، فتبدو المدينة فجأة أكثر ضحالة ، ويبدو الصّمتُ أكبر، والسّماء أبعد.

حتما، الخريفُ تعرَّف على معاصرٍ له ، والريحُ، رغم رطوبتها، تبدو فى حنوِّ الوشاح الذى تم تطريزُه لأجل الحبيب . إذا لم تقْدِمِ الريح من الجنوب، أى من البحر، فإن غدا، سيكون يوما جميلا ، يوما جميلا، و لكنْ غدا، بعد ساعات، سيقوم الدكتور كوسْت بآخر جولة له تحت هذا الدُّلب الذى لم يسعفه الوقت فيما مضى لكى يتأمَّله.

– أشعرُ بالبرد ...

آاه ! لأنها تشعُر بالبرد...

أعيدُ إغلاقَ النوافذ .

أعـود إلى مكانى المقـابل لفـضـيلة. لأوَّل مـرة منذ بـداية هذه السّـهـرة تسـتـعـملُ كلمات لا تُخـيفُنى ، كلمـاتٍ تسـتطيع فـتـاةٌ أن تقولَها إلى والدها، كلمـاتٍ يستعملُها الجميع، كلماتٍ من القاموس اليومي.

هذا يُنسينى قليلا الـ :

– على هذا الولد أن يسقط...

حقا أنا شاكرٌ لها هذا.

(٢٠)

كنت أشكُّ في أن فضيلة سوف تطرح عليَّ هذا السؤال. منذ لحظة فقط، تطلَّعتُ عبر وجهها حتى بلغتُ الأبعادَ المتوسِّطة التى تقبعُ كصورة على مكتبي. الشفتان نفسهما، العينان نفسهما، إلاّ أنَّ سحنة فضيلة تميل إلى بعض الشّحوب.

– لماَ احتفظتِ بهذه الصورة ؟

أشحتُ بوجهى ، وظللتُ أرمقُ النافذة التى فُتِحت من تلقاء نفسها ، وكأن روحاً غريبة دفعتها إلى ذلك. أنهض لكى أُغلِقَها . أشعرُ بوهنٍ لا يبرح كتفيَّ . لستُ أتألِّم ، أنا خَجِل . أنا أتألَّمُ وخَجِل.

– إنها هيَ ... إنها أُمِّي؟...

تغادر فضيلة أريكتها، وتتخذ مكانا لها قرب الصورة ، تلامسنى بخفة لا تشعرُ بها. بالنسبة لها، فأنا لم أعد موجودا. تعود إلى الجلوس من جديد. أتّصورُ بأنَّ كتفيها هى الأخرى ثقيلتان ، ثقُلتا.

رغم كل شيء ، فمنذ مدة قصيرة، كان الصّمت يقرِّبُ بيننا. وأمّا الآن فهو يفرِّق بيننا، يُباعدُنا، يمَوضعُنا على طرفى نقيض.

منذ مدة قصيرة ، كانت غريمتى ، والآن – عبر عينيها –

فإننى أشعرُ بها عدوَّة لي. منذ زمنٍ، كان الصمت يتكلَّم لكى لا يتفوَّه بأى شيء. الآن يبدو الصمت فى بلاغةِ مَن يستبق حُكماً، أو تشخيصا قاتلا.

فى النهاية، منذ زمنٍ، كان الصّمت شقيا، وأما الآن فهو يبدو طاغيا. الآن، هو صلد فى إنسانيته.

– كم كانت جميلة !...

تتناثر خصلة شعرها على جبينها من جديد ، ثمَّ :

– وظللتَ خاويَ اليدين...

أبتلعُ ريقى بصعوبة. أشعرُ بأننى لو تكلمتُ، لو أجبتُ، فإنَّ كلماتى سوف تخرجُ من جبيني.

(٢١)

دقت السّاعة مشيرةً إلى الثانية، لتجُرَّ وراءها انجرافا ثلجيا. وإذ بى أدخل فيِ جسدِ الزمن...

لم أقبَل بذلك الزواج، غير أننى قطعتُ عهدا لوالدي. أعطانى كلّ شيء، وأنا بدورى لم أكن لأرفض له أيّ شيء. الرسائل التى كان يجعلُنى أكتُبُها -كان لا يُجيدُ إلاّ العربية -كانت مليئة بالإعجاب . كان ينتقم بها من خِلالي. معي، كان ينتهى ، كان لزاما عليه أن ينتهى ذلك الجفاف الذى يجعل القمحَ والصوفَ يشُحّان . معى ، كان ينتهى ذلك الجليدُ الذى يؤبّدُ عقمَ التّين والزيتون.

كل سنّة من سنوات دراستى كلَّفَتْ والدى بضعة فدادين. نجاحى فى البكالوريا : حقلَ العنبِ الأبيض الصغير المحاذى للنهر عند أسفل الجبَّانة . سنتيَّ الأولى والثانية : طاحونةَ الزيتون التى تعود إلى عهد أجدادى . كنتُ ملزما أن أُغادر، أن أجد حلاًّ. لن أصبحَ كذلك الذى يُخاطَبُ بصيغة المُفرد، ويُعاملُ بخشونة وبازدراء واحتقار. فى الحقيقة ، لم أكن أُزاولُ دراسةً. كنت فى أمرٍ بمهمّة. كنت أقوم بواجباتى كما فى المدرسة الابتدائية .

- ابنى فى باريس ،إنه يدرس...

وإذ بشيوخ القرية يحنُون رؤوسهم خشوعا ، وإذ بوالدى

يتخفى وراء افتخاره بإشعال سيجارة ، ووالدتى تبعث إلى بطرود تصلنى متنوِّعةً . طرودٌ تفوح منها رائحة القلب الطيب.أخواتى كنَّ يتبجحن أمام بنات أقاربنا بصورى أمام "البول ميتش"، معطفٌ أزرق وحذاء بكعبٍ قصير ، أو بمئزر أبيض فى الدّاخلي، وسط جموعِ مآزر بيضٍ أثارت دهشتهم.

بعد مناقشتى لمذكرة التخرُّج ، لجأتُ إلى التخصّص ، كأنى أمنح نفسى تأجيلا.

كنت أعرف سعدية كثيرا، كى أُحبَّها. لم أكن أريد هذا الزواج. لطالما لعبنا لعبة الهياكل، تحت ظلّ أشجار البرتقال أيامَ الحرِّ الشديد، فى الصّيف البربري. لطالما قطفتُ لها أجمل حبات التّين اليانعة. ذات يوم، كان ذلك أثناء عطلة الربيع ، حين كنت أُقدم امتحان البكالوريا، جلبتُ لسعدية إثر عودتى من العاصمة منديلا وزجاجة عطر . وبانتهاء العطلة، أرسلتْ لى بوساطَة أختى ظرفا صغيرا احتوى على خصلة من شَعْرِها الأحمر . كان هذا أحدُ أشعَارها المؤثِرة، بسيطٌ وعاديٌّ، و صادق كالمطر.

***

أذكرُ الغرفةَ الخفيضة والنافذة التى تُطلُّ على الوادي. كان الخريف، كما هذا المساء ، إلاَّ أنه كان خريفا أشدُّ كِبراً، أشدّ مهابة. كان والدى على أهبّة الموت، إلاَّ أنه كان يرفُض تلقى العلاج من زميلى فى المهنة، الطبيبُ الفرنسى العجوز. كان والدى لا

يعـتـرف بالعـلاج إلاّ من قِـبَلى . لهـذا بـاعَ حـقلَ العِنَب الأبيض وطاحـونة الزيت السّلفيـة. على عـتـبـة الأبدية كـان يتـذوَّقُ النصـر أخيرا: كانوا ينادوننى "دكتور"!... ولذلك ، فـهو لم يعد يهتم بحقل العنب الأبيض ولا بطاحونة الزيت السلفية...

– سوف تتزوَّج سعدية .

لم يكن هذا ، لا أمرا ، و لا رجاء ، كان حتمية.

والدتى التحقت به بعد مدة قصيرة إلى القبر.

وبعد زمنٍ قصير تزوَّجتُ سعدية.

***

فضيلة قدِمت فى السّنة الخامسة من زواجنا . كنتُ أرغب بهذا المولود، مدفوعا بإرادة قوية تتغذى من إحساسى بدَين ما تجاه زوجتى . كنتُ أرغبُ بإعادة الارتباط والتأكيد على بناء أُسرة، وكنت صريحا فى رغبتى تلك. إلاّ أننى كنت أُمضى أغلب الوقت فى العيادة ، وكنت لا أُفوِّتُ فرصة حضور الملتقيات الطبية فى الجزائر، كما فى باريس، كما فى الأماكن الأخرى...

كانت سعدية لطيفةٌ جدا، وتتألم كثيرا. وكنت أتألّمُ برفقتها.

بعد زمنٍ، انقطعتُ عن الكلام كلية فى البيت، وأما زوجتى فكانت تقصدُ مرارا مقام الولى سيدى راشد فى مدينة قسطنطينة للصلاة والتضرع إليه لكى يخلّصنى من مسِّ الشيطان.

لم يمسسْنى أيّ شيطان . بحق، أى شيطان. كنت أحنو على سعدية كثيرا، فلا أحد يتخذُ أُخته زوجا.

سعدية أيضا كانت تحلُم، كانت تحلُمُ لأجلى ، تحلُمُ بي. لم أكن أحلم لأجلها .

ثم إننى كنت أتملق فى امتداحها. والداها كانا من أعيان المُلاَّك .

كانا ينظران إلى هذا الزواج نظرة ارتقاء لمكانتهما القروية الخالصة، فأنا أضفَيتُ عليه هذا الختم. قدَّما إليَّ كل وسائل الاستقرار ، ولكننى ما كنت لأحتمل ذلك.

حين بلغتْ فضيلة السنة الثامنة، غادرتُ البيت، فقاما بانتشال فضيلة، وبتربيتها.

علمتُ فيما بعد بأن زوجتى توفيت فى مستشفى للأمراض العقلية بمدينة البُلَيْدَة.

أعرف، أعرف بأن كلّ صفات النذل لصيقة بي.

(٢٢)

الخطأُ يعودُ إلى ما أوهمتُ نفسي بأنّه درعي الواقية . أَستنتجُ الآن هذا. شبابي لم يكن عُذرا ولا حجّة. كنتُ أعتقد بأن الحبَّ وحدهُ كافٍ لإدخال السعادة . ولأنني كنت لحوحا في مستلزماتي، فإنني لم أحصل في هذا العالم على الشيء الكثير، وفي النهاية لم أُعطِ إلا القليل.

فجأة، تأكّدتْ شيخوختي. الشيخوخة ليست شيئا مرعبا في حدِّ ذاته. و لستُ بنادمٍ على شيخوختي . لم أَمض إلى الرياضة الشتوية في السادسة عشرة ، لم ألحظ قريتي تبتسم، لم تحنُ يدٌ حنونة عليَّ وتربِّت على شعري في السّاعات العسيرة.

غير أنَّ "جِرْمِينْ" ...

***

كنتُ قد أنهيتُ سنتي الخامسة. كان هذا جميلا كبطاقة بريد. صراحةً، أنا أبدا لم أعتقد في صلابة السّعادة ، في أصلها، السَّعادةُ مادة بائدة ، كالحياة ، كتلك الأدوية التي لا نستطيع استعمالَها بعد انتهاء تاريخ صلاحِيتها. أعترفُ بأنّني كنت دائما أخافُها . حين كنت في الثامنة، كنتُ أستبعدُ فكرة بلوغي العشرين، الستِّين ، فكرة أن أصير حكيما، وأستسلمَ للزمن ، وأصيرَ قنوعا بآمالي . و ها هي ذي قد جاءت الستُّون، فهل أنا أكثر تعقُّلا وحكمة، أكثر إذعانا للزمن ؟ أجهلُ الإجابة. ولكنني

على علم بأننى لم أعد أشعر بالجوع ، وبأنَّ شهواتى صارت أكثر توافقا مع العقل.

غير أنَّ جرمينْ والحانة الصغيرة المقابلة للأطفال المرضى...غريبةٌ هى مكانة الخمارات فى حياة الطُلاَّب! جرمين كانت صاحبة قلب طيب وعقل نير. تبتسم كما فى لحظة فهم شيء من هذا العالم . وكانتْ تشترك معى فى شيء واحد ، كانت تتكلم عن الأدب بقدر كلامها عن الطّب . قد يبدو هذا نادرا فى مجال كهذا. ولكن ما هو الطّب ، إن لم يكن نوعاً من الأدب فى حالة حركة ؟

رجلٌ فى مثل سنى قد يُبدى نوعا من الحياء فى حديثه عن حبّه الأول والوحيد.

– أخطأتُ، منذ قليل، تقول فضيلة وهى تتلذذ بانتقامٍ أجهلهُ...أخطأتُ، لقد تغيَّرتَ كثيرا!...ثم تمدُّ بيدها إلى محفظتها الخضراء، وتخرج منها كرّاسة ، ومن الكراسة صورةَ ، تسلِّمُنى إياها.

– أنا.

خطأ، دكتور إيدير، كان أنت.

أمضيتُ ثلاثين سنة لكى أستعيدَ نفسى .عبثا بسطتُ خيط الصوف ، أعدتُ تركيبَ الحاكى . شغَّلتُ آلة التسجيل..عبثا.

لا شيء استجاب لندائى . ثلاثون سنة مضت، لم أُبصِر فيها ذاتى وجها لوجه ، تلك العيون التى كانت تقصِدُ سبيلها مباشرة، لم تكن عيونى . وأمَّا اليوم ، فإنَّ عينى صارتا تكتفيان بالنظر فقط ؟ المستقبلُ لم يعد فى عينِي.

غير أنَّ هذى العيون، شئنا أن نفقأها أو نقتلعها ، فإنها سوف تجدُ جرمين، فى الأعلى ، فى الأسفل ، فى كل مكانٍ، جرمين.

***

أذكر جيدا تلك القطوف على حافة دورانس ، عند بداية شهر أكتوبر الحافل بالإهانات. كنَّا نشعرُ بأن الخريف كان يهيئُ لنا حظا سيئا.

– أنا على تمام الثقة بكِ...

يلمحنا طفلٌ فيصرخ :

– أُ و وِ ى ى ! يا أيها العاشقان، هل تريدان بعض العنب؟

ثم يرمى إلينا بعنقود وهو يضحك. كان أشقرَ كإله صغير، وأنا احمررت كحبَّة عنب ، فأنا لم أعرف أبدا كيف أتخلّصُ من حياء المسلم.

كنَّا مُمَدّدين على الحشيش، مستندين إلى منحدر ترابٍ أحمر،

خضـرة الدَّوالى تتلألأُ تحت الشّمس، بعض الحـشرات الصـغيرة كانت تتشابك فى ألاعيبها البهلوانية.

– ... السماء ، هل هى بنفس الزرقة عندكم يا صلاح؟

كنا نتكلم من أجل الكلام، كنا نتكلَّم كى نتقارب فيما بيننا، كنا نتكلَّم لأننا كنا مندهشَين.

فى تلك السّنة –ليحفظ الله تلك السنة ، رغم كل شيء – أمضيت الصّائفة فى فرنسا، والدا جرمين استضافانى لمدة أسبوعين عند نهاية العطلة. والدُ جرمين – بيطري– . كان يشك فى وجود إحساس مشترك يربطنى إلى ابنته. ولذلك فقد قطعتُ على نفسى عهدا بمفاتحَتِه بالموضوع قبل ذهابي.

– عزيزتى جرمين، السماء عندنا أكثر زرقة ممّا هى عليه فى هذا الرّيف. سوف تعرفين ذلك حين تصيرين زوجتى .

اعتدلتْ جرمين فى جلستها، كانت شفتاها ترتجفان دون أن تدرك ذلك.

– حين أُصبحُ...

– نعم ، جرمين حين تصبحين زوجتي.

عاد من جديد الطفل الأشقر صاحبُ العنب ليمازحنا :

– ماذا يا أيها العاشقان، أراكما تراقبان الآخرين فى شغلهم!...

بتلك اللغة غير القابلة للتّقليد، الشبيهة بترنُّح الصبر فى اكتراثه.

– أتعلمين ؟ أنا جادٌ فيما أقول.

لم تُجِبْنى بأيّ شيء، إلا أنها أخذت بيدى واعتصرتها حتى بانت عليها بصماتها.

سحبٌ خفيفة، بيضاء ووردية، قدِمَت من حيث لا أعلم، ثم غادرتْ فجأة بانقضاض المغيب عليها. خضرةُ أوراق الدوالى اسودَّت، إلاَّ أن النُّور ظلّ يُحافظ فى سلامٍ على حقوقه.

كم من الزمن سوف تحتفظ جرمين بيدى مضمومة إلى يدها ؟ لا أعرف . العربات الأخيرة امتلأت . راعٍ عجوز ينحدرُ من حكايات ألفونس دودى ، ويجلبُ قطيعه اللّيلى عبر الطريق الضيق الذى يحفُّ القنال.

– جرمين ، ربما تشعرين بالبرد ؟...

مددت إليها بمعطفى . شخصيا لم أكن أشعرُ بالبرد ، حرارةٌ متستِّرة كانت تغمُرُني. دائما كانت تغمُرنى حرارة مماثلة لحظة الامتحان. أجراسُ القطيع الأخيرة تتلاشى عند الهويس الصغير. كنّا نستمع إلى المساء وهو آت ، ولم نكن لنحرِّك ساكنا.

ألديَّ ما يكفى من الجرأة لكى أُقبِّلَها ؟ كنتُ أشعرُ بأنَّ جدارا من الخجل يستحيل تخطِّيه يفصل بيننا . كنت مشلولا. الحشراتُ انغلقت على نفسها فى إحلى زوايا غريزتها المريحة. قاطرةٌ تبكى

طريقها الذى يمتدُّ فى اتجاه غرنوبل . ألديَّ ما يكفى من الجرأة لكى أُقبِّلَها؟ أعتقدُ بأنَّ جرمين كانت لا تزال تحتفظ بيدي.

إلاَّ أنها أغمضت عينيها.

الولدُ الصغيرُ الأشقر ما زال يزاول مُزاحه :

– ربما تسعيان إلى اقتطاف النجوم أيها العشّاق ؟

ثم سرعان ما أسلم رجليه للريح وهو يضحك.

ربما كنت أسعى فعلا إلى اقتطاف النجوم ، النجوم التى اختبأتْ خلف أشجار الدّلب والحور.

– نعم أشعر ببعض البرد ، فلنعد إلى البيت لو سمحت...

انتابتنى فكرة مفادها أنَّ الرطوبة الطالعة من القنال لم تكن هى السَّبب الوحيد وراء الرّعشة التى غمرت صوتها.

لم أعد أعلَمُ إنْ كانت جرمين تحتفظ دوما بيدي. أنهينا الطريق كمَن يمشى فى نومه.

– صلاح...

الصوتُ لا يزال يرتعش:

– إننى أستمعُ إليكِ جرمين.

– صلاح...

إلا أنها صمتتْ، ودفعت بنفسها إلى أحضاني. الرطوبة الطالعة من القنال لم تكن هى السبب الوحيد... وصلنا إلى البئر الموجودة عند مدخل طريق يأخذ إلى بيت جرمين. فى الحقول،

كانت القاطرات المهجورة ترتفع بتقالاتها فى السماء كيدين تباشران الصلاة.

– صلاح ... ما أخبرتنى به قبل حين...

ظلّت الكلماتُ عالقةً بحلقها، كما الحقيقة فى قاع البئر، وكتفاها متروكتان إلى ذراعيَّ. كانتا وديعتين ورخوتين، ناعمتين لشدَّة إحساسى بأنَّنى أُمسك بين يديَّ عصفورَ دورى حديث الولادة.

– هل تعلمين، جرمين ، أنَّ هذه النجوم التى ترينها هى نفسها التى فى بلادى ؟! حين تأتين عندنا سوف تحكى لك عن زمن الدَّوالى ، وسوف نتذكَّرُ هذه البئر .هذه البئر يا جرمين ستكون أوَّل من سوف يشهدُ على زواجنا...

انفلتَتْ فجأة من بين ذراعيَّ:

– لا، لا يا صلاح. جرت مسرعة نحو المنزل. خطيبى سوف يأتى بعد أسبوع.

***

كنتُ أجهل حينها بأنَّ النجوم لا تقطف.

(٢٣)

أعيدُ إلى فضيلة صورتي. لحظةٌ واحدة كافية لاستعادة ثلاثين سنة. بإمكانكِ أن تتكلَّمى يا فضيلة ، بإمكانك أن تشتميني، أنا أقلّ بعدا عنك ممَّا تظنِّين ، أحترفُ ميزة "التخفِّى "، كما تقولين ، وحيدا. لكلٍّ أن يلجأ أينما يستطيع. إنه مستقبلهُ ، إنه مستقبل عمر، الذى يُريد أن يحميه. وأمّا أنا، فإنَّ الأمر يتعلَّقُ بماضيٍّ ، ماضيّ هو الذي يحميني. مستقبلي الوحيدُ هو ولدُكِ ، سوف أحميه رغما عنك...

– أنتَ بلا قلبٍ إذن !

لفضيلة عينان حائرتان، مستديرتان...

كُفِّى عن هذا يا بنُيَّتي، و لنعُد إلى الجدّ.

***

حدث هذا قبل مايو ١٩٤٥ بقليل.كانت فضيلة فى السّابعة أو الثّامنة. فى القرية ، البلدية المختلطة، شيعَ عليَّ بأننى كنتُ طبيبا جيدا وحازما. زوجتى لم تعرف سبيلا لإرضائى . بذلك جعلَتْ منى إنسانًا بائسًا.

كانت لا تكفُّ عن تأنيبى .

غريبُ !! كيفَ يسهُلُ تحميلى الذّنب ؟!

جوٌّ منَ الرِّيبةِ كان يحوِّمُ حولَ الجزائر . الحربُ الأخيرة – تلك

العملية القيصرية – وضعتْ الكثير من الحقائق فى العراء، الخريفُ الذى كان قادما، لم يعلن الأزهار .

انغمرتُ فى عملى . ورغم أنّه لا شيء أتفه فى وطنى من ممارسة الطب، فإنَّ الأمرَ كان يتطلَّبُ عددا من الأطباء يوازى عدد المرضى .

كان الشّقاءُ مهولا.

"السُّلُطاتُ" كانت تعاتبُنى على عدم انضمامى إلى حلقاتها، حلقاتٌ انطوت تحت شعارٍ طليعى خاص بالمنطقة.

كنت أتحاشى بقدرِ الإمكان مدفوعا بذائقتى أكثر من مبادئي، انغمارى فى " الكلُّ للقرية". المسلمون من جهتهم كانوا يعاتبوننى على أنفتي. كانوا يحبِّذوننى طبيبا أكثر حلما وألفة، وكانت هذه ظاهرة جزائرية خالصة : المثقَّفُ المسلم ملكٌ لطائفته. فى المرحلة – وأؤكد على المرحلة، لأنَّه ومنذها نشأت فعلا طلائعُ حقيقية ، طلائع لم تتخرج حتما من المدارس –المثقّف لم يكن فقط ممثِّلا لراية الكتلة التى ينتمى إليها ، وإنّما كان ملكا لتلك الكتلة.

بالرغم من الحجج المتعدِّدة تلك ، فإننى كنت دائم الرفض لدعوات القائم الإدارى . كنتُ أعلَمُ بأننى أُثيرُ فضوله ، بل وحنقه حتى . لكن ،هل كنتُ مدينا له بحسابات أؤديها ؟ . هل كانت لديَّ أسرارٌ لأبوح بها إلى أوَّل موظَّفٍ قادمٍ من الحاضرة ؟! فى القرية كان هناك طبيبٌ آخر من منطقةِ بروطانيا، كُفْء وشديدُ الطِّيبة،

اجتهدَ كثيرا هو الآخر فى بدايته ، من أجل أن يتعرف إليَّ ، عبثا. المرضى الأوربيون كانوا يمتنعون عن زيارتى حتى أثناء عطلة زميلي، كانوا يُفضّلون حينها النزولَ إلى المدينة، إن كان الأمر فى الصّبح أو حتى فى المساء، فيتكبّدون بذلك عناء أكثر من مئة كيلومتر ، بدل العلاج عند"الأنديجين". أين ستعشش العُنصرية ؟ وكأنَّ البنسيلين تُميّزُ بين فرانسوا ومحمَّد !! أعترفُ بأننى لا أشعر أبدا بأدنى إحساسٍ بالمرارة. معايشتى للأمراض المُهلكة حصَّنتنى ضدَّ الأمور المهينة التى هى من هذا القبيل.

***

. ورغم ذلك ، فإنّنى لم أستطع ذات يوم أن أتملّص من واجباتى المدنية،والسّبب يعود إلى حفلةٍ أقيمت تحت رعاية مستشفيات الصّليب الأحمر فى صالونات البلدية المختلطة، التى ارتقت الآن إلى محافظة كما علمتُ عبر الجرائد. قواعد اللّباقة تفرض على الطبيب أن يحضر اجتماعاتٍ من هذا القبيل. تظاهرتُ إذاً بنوعٍ من الطيبة رغما عنِّي.

***

استقبلَنى القائم الإدارى شخصيا. عبَّر لى عن مودَّته، التى عجلّت البروتوكول . دخولى جعل الأنظار كلها تُشدُّ إليّ فلم يكن أيٌّ من الحضور ينتظر وجودى هناك. الأضواء والشمبانيا كانت

تنهمرُ على السطح . البرانس الملوَّنَة والمُزيَّنَة كانت تجاورُ البزاة والألبسة الأوروبية. والسيدات كُنَّ يعبَقنَ أناقةً.

كُنَّا بعيدين عن الجزائر، بعيدين جدّاً عن كلاب الدُوَّار التى يشتدُّ نباحها لحظةَ تتوقّف الموسيقى . البلاد كانت تسهر فى الجوار. عبر النوافذ كنتُ ألحظُ الأرض وهى تتظاهرُ بالنوم. الأنوارُ الصفراء التى تلطّخُ حدائق المُلحقة كانت تعزِلُنا، وكان عالمُنا الصغير ذلك بمثابة الباخرة الفاخرة التى تطفو فوق بحرٍ من المرارة.

تعدَّدتْ الانحناءات الصغيرة .الابتسامات المنمَّقة جيدا كانت تقفز من وجه إلى آخر. البرانس كانت بادية بعنف عن طريق حجمها وجلالتها. لا بُدَّ من رؤية النظرة السَّعيدة للبرنس المزيَّن من أجل الاقتراب من فكرة الرِّضوان والدناءة و" النجاح".

أخذتُ مكانا قصيّاً، مستعجبا حضورى . قرينة الصيدلانى أشارت إليَّ بأنها لم ترنى قطُّ فى ساحة التنس . المستشار العام للبلدة أعلمنى بأنَّ المشفى المدرسى سوف يتجهَّزُ قريبا بآلة راديوغراف جدُّ متطورة. كنتُ أنصتُ بلباقة ، مستجمعا كلماتى لكى أغزلَ منها جُمَلا ، كأولئك الأولاد الذين تدفعهم رغبةٌ رعناء إلى إعادة تركيب لعبة بناءٍ مستعصية.

فى دخيلتى كنتُ أستَحسنُ الرخاء الذى كان يبدو عليه الحضور، وكذا تلك البشاشة المصطنعة أو تلك الصّادقة.

ودائما عبر المنافذ الواسعة ، كنتُ أرنو إلى السَّهل . وعبر انطوائها السّاحر ، كانت المرتفعات العليا تتصلَّدُ فى هدوئها وهى تستمعُ إلى الموسيقى، ضحكاتُ السيدات وسدَّادات الشمبانيا. آهٍ! لو كان باستطاعة البنسلين أن ينسكبَ أنهارا.

***

بعض الأعراض المقلقة انكشفتْ لي. فى دوَّار بن يوسفى ظهرت عدّة حالات مرضية تم إخبارى بها عن طريق الملحقة الطبيّة. علينا الاعتراف بأن شتاء ١٩٤٤-١٩٤٥ كان شديد القساوة. الثلوجُ والمجاعة قادتا الحفل البائس، تماما مثلما يحدُثُ هنا، الشمبانيا والألبسة الأوروبية هى التى تقود الحفل.

بَلى، أنا قلقٌ بشأن مرضى دوَّار بن يوسفي، وأنا لا أُحبُّ تلك البُقَع الوردية التى ترتسم على الخدود الشديدة النُّحول.

يتحدثون عن حُمّى كاسحة.

أخشى أنه التيفوس...

***

مغنٍ عبر مكبر الصّوت يتلو "مودون" ،"لامارن" والحانات الريفية. الحديثُ يدور حول الحبّ والعهود والقُبل.

***

على مقربة ألف كيلومتر من الشّقاء، توجد مراقص وخمور بيضاء وشمسٌ طيِّبَة القلب لأجل "الباستيس" وظلال أشجار الدّلب

، لأجل ملاعب الكرة الحديدية ولأجل القبضات الملساء التى تختزلُ نداءاتها الداخلية فى التمظهر من أجل اختراع بطاقاتٍ بريديةٍ وعشّاق.

تلك البقع الوردية هى التى تثير فيَّ الكثيرَ من المخاوف.

غدا سوفَ ألتحقُ شخصيا بدوار بن يوسف.

– دكتور، أنت فعلا قليل الكلام.

يكلِّمُنى القايِد(١). قايد دوار بن يوسفي، رجل ضخم وذكي، ورغم ذلك فهو أنيق، أنيقٌ جدا. خسارة، فرغم ذلك فهو حثالة.

كنتُ دائما أتحاشاه. أنا لا أُحبُّه ، وهو يعلمُ ذلك. العارُ كان ينسكبُ عليه مثل ذلك الورَع الذى كان يغلِّفُ بُرْنسه، لا يمدُّ يدَه أبدا، وينزعُ إلى التحيّة العسكرية. هذا ما آلت إليه الصّقور، وهذا ما قبلِتْ به الصّقور. كثيرُ الأدب من أجل أن يستحيلَ إلى إنسانٍ وفيّ ، حقاً، حقا.

يكلِّمُنى باللغة العربية.

مبدئيا أجيبُهُ بالفرنسية، لكى أتفادى اقتسامَ تضامنى الأخوى الذى قد ينشأُ من لغةٍ مشتركةٍ تبدُرُ من إنسانٍ أحتقِرُه.

– علمتُ بأن كثيرا من الحالات التى تعانى نفس الآلام ظهرت فى قرية بن يوسفي...

– أعرفُ ذلك . سوف أتدبّر الأمرَ.

---

(١)القايد: الاسم الذى يُطلقُه الجزائريون على الأنديجينا العملاء لدى الإدارة الفرنسية.

– كان صوتى جافا :

لا يلحُّ، ثم يتوجَّه إلى مأدبة الطعام . الخمرُ خطيئتُه التى تتجاوزه قُبحا ، ورغم ذلك فهو لا يتوانى فى الذّهاب كلّ جمعة إلى المسجد والتصريح علنا بأنه ينوى الحجّ إلى بيت الله الحرام .أتساءل إن كان سيأخذ معَه فى ذلك اليوم كرباجه الذى يصنع سلطانه فى المشاتي؟.

أقتربُ من جديد من النافذة، أنظرُ إلى الحديقة، وينظر القمرَ إليَّ .

النخيلُ القزمُ يركع لجلالة اللّيل، يركعُ للجلالة دون تلك الانحناءات الصغيرة. النباتات المتسلِّقة ترتطمُ بالحيطان البيضاء بظلها العجائبي.عندَ مدخل المتنزّه يمارِسُ خيّالة البلدية المختلطة الحراسَة بألبستهم الخاصّة. هم أيضا شديدو الأناقة.غير أنهم ليسوا حثالة، هم أشخاصٌ مساكين.

– أخيرا لوحدك ! أنا جدُّ سعيدٍ لأنّك بيننا هذا المساء، وهذا أمرٌ نادرٌ جدا يا دكتور إيدير.

القائمُ الإدارى الرّئيس رجلٌ أنيق، جميلٌ، أشقر بشوش، فى الأربعين على أبعد تقدير.

– والعمل، كيف هو ؟

أعرِضُ عليه هواجسى فيما يخصُّ قرية بنْ يوسف. يستمعُ إليَّ باهتمام :

– أنت تعلَم بأنني أدعَمُك كليّة...

وإذ بوجهه يستنير :

– يا للشّيطان !! ولكنّنا لسنا فى مداومة هذا المساء...

يمرُّ أمامنا "بويْ" فى لباس شامبانزى متخفٍ فى رئيس خدم:

– كأس شمبانيا ؟ يعرض عليَّ القائمُ الإداري.

– لا شكرا، أنا لا أتناولُ الكحول.

– أنتَ حكيم.

– لستُ حكيما، أنا مسلم، هذا كلُّ ما فى الأمر.

– إذن فلنتناول كأسَى عصير فواكه.

أعترفُ بأنَّ أدبا من هذا القبيل يؤثر فيَّ حقًّا.

– دكتور، أريدُ أن أطلبَ منكَ نصيحة، طبعا نصيحة فى السّياق الطبيّ.

أشيرُ إليه، مذكراً إياه بجملة جاءت على لسانه:

– لستُ فى مداومَة الآن .

ينفجرُ بضحكة عالية، ضحكة تُشير إلى العافية والاتزان.

– زوجتى تنتظرُ ما نستطيع أن نُسمِّيه حدثا سعيدا. و أنا قرَّرتُ جلْبها إلى هنا...

أُقاطعُه :

– أنتَ تعلم، فيما يخصُّ فن التّوليد، فأنا لستُ فى المستوى المطلوب...

– على كلٍّ .. فأنْتَ تعلم طبعا أكثر منى . نعم ، كنتُ أقول إننا

فى انتظار مولود ، وأنا بصدد التساؤل إن كان الجو هنا ملائما لأمّ المستقبل ؟ من جهة أخرى ، فمع هذا الوباء الذى يهدِّدُ.... عذرا لحظة، من فضلك...

أغطيةُ المأدبة البيضاء تلمع بفضيّةِ الأوانى والكؤوسِ. خلف الخدم، توقِفُ النوافذُ المساءَ الذى استحالَ إلى لَونٍ بنفسجي. أُعطى بظهرى إلى الصّالون. أرمقُ الليلَ ونجمات بلادى . أنا مولعٌ باللّيل.

يدٌ تربّت على كتفي.

– عزيزي، أُقدِّمُ لك...

كانتْ جرمين.

(٢٤)

تحولت القريةُ إلى مكانٍ أمقته. العرضُ التّشكيلى لحمل جرمين يعذّبُني . لم يعُد عملى يكفيني . أضِف إلى ذلك أنَّ العملَ فى حدٍّ ذاته لا يُعدُّ مدعاة للغبطة. صارتْ سعدية تُمحى شيئا فشيئا أمامَ تكالُبِ غيابى . كنتُ قليلَ الخروج خوفا من وحوش القطاف.

***

كان يوم الأربعاء ذاك ، يوم السُّوق الأسبوعية، وككل يوم أربعاء، كانت العيادة شبه شاغرة. فى مساء اليوم السّابق كنتُ قد توجهتُ إلى قرية بن يوسفى . هواجسى ويا للأسف تحققت : التيفوس ضرب بأطنابه ، أتذكرُ جيدا، أثناء عودتى فجرا إلى البيت ، لم يكن لى من الوقت إلاّ زمن أخذ حمّام . القريةُ كانت قد امتلأت بالشائعات المعهودة ، وكان عليّ أن أعمَلَ ، أن أعمل أكثر فأكثر.

قادر، ممرضُ العيادة ، كان رجلا مهمًّا، فاجأته يوما ما فى مكتبي، والسَّماعة فى أُذنيه ، منشغلا بفحص أحد أقاربه. فى غيابى كان يُطلِق على نفسه لقَّبَ الطبيب.

والغريب هو أنَّ تشخيصى كان يتوافقُ غالبا مع تخميناته . إضافة إلى متنفسّه هذا، فإن عيبا كان ملازما له، وهو تدخينه الكثيف للحشيش. حينما كنتُ ألحَظُه قادما، غائبا ، متملِّصا من

أشياءِ العالم ، فإنّنى كنتُ أُحبِّذُ مراقبة الحقن والعلاج بنفسى . عدا هذا ، فإنه كان لى عونا مهمّا، ملتزما قلبا وقالبا، مداوما فى الصّبح كما فى المساء. كان يعترفُ لى بدَين بلا حدود منذُ أن أنقذتُ والدتَه. كانت والدته بمثابة إلهه الطيّب، وكنتُ رسوله.

كان اليومُ طويلا. آخر زبونٍ كان على وشك المغادرة . الوقتُ أشار إلى السّادسة. مكتبى وغرفة الانتظار كانتا تعبقان شقاءً بشريا. فتحتُ النوافذَ وأشعلتُ سيجارة أستحقُّها فعلا، متأمِّلا اللّقالِقَ التى تعود إلى أعشاشها. فى الشّارع الرئيسى بدأت المقاهى المغربية بإخراج مصابيح الاسيتيلان. بائعو الشواء كانوا ينشِّطون جمّاراتهم . مسؤولة البريد تعبُر الشّارع متوجِّهة إلى المقهى الفرنسى حيثُ كان يقبع الموظّفون العزّاب فى مراقدهم .وكنت أنا تعبِا حدَّ السّكر.

ناديتُ على ممرضى :

– قادر! لستُ هنا من أجل أى شخص، سمعتني، أيَّ شخص!...

– ليس حتى من أجل الإله الطيّب، حكيم؟

كانت هذه طريقته المعتادة، عموما، فقد كانت دائما تبعثُ فيَّ الابتسام. أجبتُه :

– ليس حتى من أجل الإله الطيب.

كان وجهى بين يديَّ، ولم أكن أعرف بأية أفكارٍ أتعلَق . كنت

خاويا. كنت فى الفراغ . طيلة النهار كانت تخمينات قد أخذت مكانا.

من المؤسف التواجدُ بعد يومٍ شاق دون إحساس بالسَّعادة الناجمة عن تعب العمل المُنْجَزِ عن آخره . لهذا إذن سجنتُ عشر سنوات من شبابى فى غرفة فى الحى اللاتيني..ولهذا أيضا صرت أمارسُ رؤية القالقِ أثناء مرورها،وعاملةَ البريد تعود إلى مرقدها العائلى ، واستنشقُ الرَائحة العفنة للشقاء البشرى فى عيادتى ؟

أعتقد بأننى غفوتُ بعدها قليلا، و لكنَّ صوت قادر هزَّنى :

– حكيم ، حكيم ، هناك شخصُ ما...

– أخبرتُك بأننى لا أودُّ رؤية أحد...

كان مُمرِّضى فى حيرة :

– حكيم، إنها فرنسية !

كنت قد أفهمته رغم ذلك، بأننى لا أُريد أن أستقبِلَ حتى الإله ذاته. كرَّرَ :

– فرنسية يا حكيم.

طبعا، لم يكن ممرضى قد اعتاد على رؤية الأوروبيين عندي.

– لا أحدَ ، سمعتنى ، لا أحد !

لم يُصرّ . كانت حركة كتفيه تدلّ على :

– فى الأخير ، القرار يعودُ إليك .

خرج، ثم أغلق الباب. سمعتُه فيما بعدُ وهو يتمتمُ وكأنما في الأمر مؤامرة ما.

إنه يقول بأنه لا يُريدُ أن يستقبلَ أحدا.

– ...

– لا ، لا أحد.

– ...

– لا أحد ! قال إنه لا يريد أن يستقبل أحدا، حتى لو كان الإله ذاته ! لا أحد ، يعني لا أحد !...

كنت لم أزل في شبه ظلام ، كان الضوء الخافت يُريحُني. فأنا أحبُّ كثيرا سِلْمَ العوالم المتداخلة.

في البهو كانت المحادثات متواصلة، لم يُطل قادر غيابه، وإذ به يعود بذات الشُّحنة.

– أخبرتني السّيدة بأنك تستطيعُ أن ترفض زيارة الإله الطيب، إلا أنه عليك أن تستقبلَها هي ... ثمّ أمدَّني ببطاقة تؤكّد عليَّ الاستقبال :السيدة "جِرْمِين ماليه ".

***

لم أستطع أن أُمانع أمام هذا التمهيد – وفي نفس الوقت نفسه لم يكن صوتي يعارض– لم أستطع أن أمنعَ نفسي من السؤال :

– ماذا تفعلين هنا ؟

أكثرُ الكلماتِ حماقةً وتفاهة قَدمَت إلى فَمى . جرمين، كانت ذاتها جرمين عهد القِطاف. لكنّنى لم أتصورها قريبة من"الأطفال المرضى" فى حانة صغيرة، فى شارع "سيفر" أو فى مكانٍ آخر.

أجابتنى بشكلٍ عادى جدا :

– هل تَسمحُ لى بالجلوس ؟

كانت تمتلكنى فى كل اضطراباتي.

– آسف...

أشعلتُ الأنوار. كان وجه جرمين ثاقبا. لحسن حظى بدرت بعض الجمل لإغاثتى :

– لا ألحظُ عليكِ الصّحة الجيدة يا... سيدتي...

أعتقدُ بأننى ارتبَكتُ قليلا وأنا أقول يا سيدتى ...كنتُ على وشك أن أقولَ يا حبيبتي.

– نعم ، لاحظتُ بأنَّكِ لا تبدين فى صحة جيّدة ... سيدتي.

للاسم دلالةٌ،لا يمكن للمخاطِب بضمير المفرد أن يلخِّصَهُ، ولا حتى للرؤية المتواطئَة والمتضامنِة أن تحتويه، ولا حتى للأمنية التى تظلُّ عالقة بالحلق أن تحكيه.

الآن ، جرمين تقومُ بنزع القناع عن وجهى . استعدتُ عينيها الطيبتين الخالصتين ، شفتيها الذكيّتين إلى حدٍّ ما. إلا أنَّ خاتم زواجها، كلما تحركتْ يدُها، كان يلمعُ كالرّصاصة.

طرق قـادر باسـتـحـيـاء البـاب. كنتُ له ممتنًا على هذا الفـاصل، ثم سارعتُ إلى الصُّراخ :

– أدخل ! أُدخُل !

– هل أستطيعُ أن أنصرفَ ؟

– هل أتممتَ تنظيم كل شيء؟

– نعم.

– تسـتـطيع أن تنصـرف، ولكن كن هـنا غـدا باكـرا . ثـم إليكَ بمئـــــــــــــزرى... ولا تـنـس أن تمُـرَّ عـلـى المـدرِّس مـن أجـل حقنة"السوليكومفر".

بفـضل ممرّضى ربحتُ دقيـقـتين ، ولكنّ الانفـعـال لم يُمـهلنى كثيرا من الرّاحة. من جديد يطرقُ الباب ، ولكن من دون سـرية . كانت فـضيلة ـ فـضيلة التى تـراجعت إلى الخلف بمـجرَّد أن لمَحَتْ جرمين.

– تعالى هنا يا قطَّتى . ألا تقولين مساءً سعيدا للسيدة ؟..

السيدة التى كانت تُدعى أيضا جرمين.

كانت فضـيلة عادةً، اجتمـاعيـة المِزاج ، وودودا ، إلا أنّها لم تبرح مكانها هذه المرة ، ظلَّت ملتصقة بى تماما كتلك الحيوانات التى تتوقف دون حراك، وجلةً أمام الخطر الذى يُهدِّدُها.

– ماذا يا عزيزتى ، قولى مساءً سعيدا لـ..جرمين...

فات الأوان! خرجت الكلمة. هل كانت فضيلة على علمٍ بأنّى لا

أُنعتُ مرضاى بأسمائهم؟ إلاَّ أنها مدَّت يدا باردة ورخوة نابعة من أسف ما "للسيدة". كنتُ على ارتباطٍ وثيق مع جرمين، بإحساسنا غيرَ المُريح.

– أليستْ جميلةٌ ، دميتى ؟

– إنها جدٌّ جميلة . أجابت جرمين.

اعتقدتُ بأن صوتها قد انسلخَ من أحشائها ، ثمَّ أكَّدت:

– نعم، إنها جدٌّ جميلة.

حان وقت الفاصل الآخر:

– أخبرينى يا قطّتى الصَّغيرة ، ما الذى جلبَك إلى هنا ؟

استَعادتْ فضيلة بريق سنواتها الثمانى.

– لقد تخاصمتُ مع اسْليم.

– و لمَ تخاصمت مع قريبك ؟

– إنها غلطتُه. إنه يقول بأن المعلمة على خطأ، وبأنَّ الأرض ليست مستديرة... بابا، هل الأرض مستديرة ؟

– طبعا هى كذلك، والآن هياًّ انصرفى !

تنصرف فضيلة وهى تصرخ :

– لقد ربحت! ربحت! الأرض مستديرة ! الأرض مستديرة!...

إنه زمنٌ مبارك . يكفى أن يكون الولدُ على حقّ ، حتى يغدو سعيدا. سعيداً فقط لأنه على حق. لأنَّه ربح. فِعْلُ "رَبِحَ" لا يكتفى بذاته إلاّ عند الأطفال.

من جديد ، ها نحن وحيدان . بطريقة بلهاء ، آليا ، أقوم بتفقّد ساعتي.

- هل أنتَ على عجلة من أمركَ ؟

- لستُ أبدا على عجلة من أمري، إلاّ إذا كان الأمر يخصّ مريضا ما فى خطر.

المريضُ ، أليس فى خطر يا دكتور صلاح إيدير ؟ ألستَ مريضا نوعا ما، نوعا ما فى خطر ؟ وأمُّك أليس ذا عينين هادئتين وخالصتين، وشفَتين شديدتى الذّكاء نوعا ما ؟

- أنا أيضا ، لستُ أبدا على عجلة...

إذن، وبصوت لا يُحسِنُ الطّلاقة أردفُ :

- إذن ، فكلّ شيء يسير نحو الأحسَن.

كلُّ شيء يسيرُ نحو الأحسن ، ما هذه السُّخرية ؟!...

عبثا أحفُر فى أفكارى ، لا أجدُ ما أقول . جرمين لم تَقدِم من أجل محادثتى بقدر حاجتها إلى العودة عن ذاتها. لم تعد لرؤيتى لأنها تعرفُنى ، بل لأنها عرفتنى . لو كنت أجرؤ، لو لم أكن خائفا من السخافة ، لطرحتُ عليها هذا السؤال:

- عمَّ باستطاعتنا أن نتحدَّث ؟

هذه أسئلة لا نطرحُها إلاَّ من أجل التأكيد على أننا لا نملك شيئا نقوله...

قدوم فضيلة وهى تصرخ: بابا ! وسؤالها إن كانت الأرض

مستديرة أنقذ تضايُقى . جرمين لم تعد باريس، والحانةُ الصغيرة المقابلة للأطفال المرضى . بتذكُّرى كنتُ أنمِّقُ رواياتٍ من خيال. جرمين حقلُ عنبٍ قريب من نهر الدورسين. إنها ولدٌ كان يشاغِبُنا نحن الاثنين.إنّها النجوم التى كنتُ أريد قطفها. الزَّمن لا يُغير أى شيء، إنه بارد، وكما البرودة، فإنه يحتفظُ بكلِّ شيء. وأخيرا قرَّرتْ :

– صلاح ، لقد جئت لأُخبرك...

ليس لجرمين أن تقدّم أيّ تبرير. ليس لماضيَّ أيَّ تبرير تجاهي. سوف يعودُ إن عاجلا أم آجلا ليحرمنى من النّوم والأكل.وفيما يخصُّ الاعتذار والتعويض،فإنّه سوفَ يجعلُنى أحلم. ليسَ لكلّ الناس حظ مقرف فى الاحتفاظ بالذكريات.

أتكلم ملفّعا بغرابة الاستماع إلى صوتي:

– أتعلمين ؟! هذا لن يفيدَ فى شيء ، لن يفيد فى شيء.

أحسستُنى مرغما على التفكير بدلا عنها، والإجابة بدلا عنها:

– إضافة إلى أنكِ يا جرمين لستِ مطالبة بأى شيء تجاهى أبدا ، ولا حتى بهذه الزيارة...

تخرج أخيرا من خدرِها. أصواتنا متعبة. حتما كانت تبحث عن الكلمات فى عمق البئر، قريبا من نهر دورسين.

– أنت تعرف صلاح !؟

– أعرفُ جرمين، لا تتكلَّمي...

أُحاولُ أن أكونْ فَظا :

– هيا ، ارتدى معطفكِ وانصرفي!...

تجيبُنى بخبث تقريبا :

– أنت تخاطبِنى وكأنّك تُكلِّمُ فضيلة . هل تطردُنى ؟

يا إلهى !! إنَّ صوتها غناء...

– وهل تعتقدين يا جرمين بأن فى مقدورنا أن نطرد الذكريات؟!...

نهضتْ. أمسكتْ بيدي. أحسستُ برعشة فى يدها .

ربّما كان مرجع ذلك إلى الرطوبة التى تنبعثُ من القنال!.

لقد عدتُ من طرف العالم . يا إلهى كم كان ذلك بعيدا ! يُقال بأن الأسفار تشحذُ الصِّبا...

بدورها، قصدت فضيلة النافذة، فتحتها وأخذت مكانا لها فى الشُّرفة. أستغِلُّ هذا لكى أُفْرِغَ المنفضة، وأحنى مِسْنَد الأريكة بدرجة: بهذا سوف تكون على راحتها أكثر.

ابنتى حامل . أنا لم أتعوَّد بعدُ على فكرة مماثِلة. ورغم أنَّ الطبيب عليه أن يُساعد الأب. إلاَّ أنه لا يفعل. لقد شاخ الطبيب. إنَّه يوازى الأب فى شيخوخته. أعتقِدُ بأنّه حان وقت زرع الكرنب. أتساءلُ أيضا : ما مصيرى بعدَ رحيل الدكتور كوست ؟ كان دائما يتقدَّمُنى فى الأعمال الخيرية. لم أعد فى سنٍّ تسمحُ لى بالحصول على أصدقاء جدد. وحيدٌ أنا،وحيدٌ أنا بالمطلق. وفضيلة على حقّ، سوف أبقى خاوى الكفَّين. الشَّقاءُ، مرافقُ طريقى العجوز، يجعل العلاقة مملَّة. العائلات تقصد السينما، وتنشغلُ من أجل مصير ابنها الذى يمتحنُ فى البكالوريا أو من أجل وعكة صحية.

المشفى، البيت، أشجار الدُّلب والضاحية...

على شفا حفرة...

سوف يخيبُ ظنّى إذا لم ينتظرنى الموت عند حافة الطريق. هذه الفكرة تُعَزّيني، إنها الوحيدة التى بمقدورها أن تُعزّيني. كل

شيء يبدو لى ثانويا، تابعا. ما نُسميِّه أنانية، ما هو فى الغالب إلا شكلا عاليا من عدم الاكتراث. لامبالاتى نشأتْ من عجزى عن العيش . أنا حسّاس أمام معنايَ ذاته. وسط الغرق ، لا يتبقى لى إلا الله. إلاّ أنَّ الله قشَّة نتعلَقُ بها وليس أرضا موعودة تبزغ عند نهاية الجحيم. وحدَهُ الصّمت صديقي، الموت صديقى . أخلِص إلى أننى كنتُ ضجرا لأكثر من ربع قرن. رغم أننى أحملُ الكثيرَ من الحنان. كلّ شيء يربُضُ هنا، فأنا دائمُ الغياب بشكل عنيف.عيناى اللاَّمباليتان شبيهتان بالعَجز. أُرافق عينيَّ عند اشتداد الحنان.

أرغبُ بتفسير هذا إلى فضيلة،بهدوء، بحنو،عن قناعة ، عن حبّ: ليس لى من عتبٍ على السُّنونوَّة، فلا تعاتبينى إن مضيت.

فيما مضى، حاولتُ أن أشرَح هذا إلى لوالدتها، إلا أنَّ سورا كبيرا كان دائم الحضور. دوما كان السور حاضرا .هل سيوجِّهون لى العتب على عجزى عن إسعاد زوجةٍ وابنتها؟ وبأية صفة؟ أنا لستُ مسؤولا عن هذا، لأننى كنتُ عاجزا أمام هذا. لم أقرِّر إتعاس عائلتى ولا إتعاس ذاتى . وليكن، أنا لم أستطع إسعاد عائلتي! أبقى خاوى الكفين ، إلا أنَّ هاتين الكفين ، ليستا فرِحتَين، ولا تحسنان التصفيق لأى عمل إبداعى باء بالفشل. حُسن نيتى ليس فى مستوى وسائلي.

ما زلتُ على قناعةٍ بأننى كنتُ سأنجح لو كنت مع جرمين، إلاَّ أن جرمين لا توجد إلا لمرَّة واحدة فى حياة الرَّجل. بعدَ ذلك فأنتَ

مُطالبٌ بافتراض حُجّة من أجل مواصلة عيشك ، وإلاّ فالضياع.

– هل تقبلُ باستقبالِ عمر عندكَ لأيامٍ فقط ؟

ابنتي مُغرَمة بعمر، هذا شيء بادٍ للعيان، مسموع. كلماتُها التي نطقت بها في السّاعات الماضية ، لم تكن كلمات أم . وها هي ذي تستحيلُ إلى كلمات امرأة . فضيلة تتوسّل. إنها مهذّبة. ما كان يخصُّها ، كانت تطلبُه بغطرسة ووقاحة، وأمّا ما يخصُّ عمر، فها هي ذي تتودّدُ من أجل الحصول عليه.

– هل تعلم ؟ لم يقم بأي سوء !

أعلمُ يا فضيلة أنَّ حبّ الوطن ليس جرما . هنا أيضا تَنْفَلتُ الحججُ نحو الهاوية . الأخلاقيات ، تتكفَّلُ بالجرم؟ المشرِّعُ يتكفَّلُ بالمجرم . والمُجرم هو دوما المهزوم.

لا شيء يعنيني مباشرة . أسوارٌ ، أسوارٌ في كل مكان . كلٌّ لذاته، وليس الله لأحد . يا للنّكتة المرحة ! جرمين ، كانت إلهي، كانت إلهي الطيب . توسّلتُ إليها كما في الصلاة، تكلّمتُ إليها بكل صموتي، بكل رؤاي . نوعٌ من الاعتقاد الطبيعي كان يمنح جِرمين من خلالي كل مكاسب الأبدية. جرمين لم تكن المرأة التي عشقتُها فحسب، أو التي لا زلتُ أعشقُها–لا تنفثوا كثيرا على الجمر –جرمين كانت أولا ، كانت خاصة ، رغبةٌ في الحياة . الرّغبة في الحياة هي رغبة في المشاركة.

أكره التاريخ ، لأن التاريخ يُعَقِّدُ كلّ شيء . في شكلها التابع،

المُستَعبَدُ والخادم ، تحاول السّياسةُ، يا صغيرتى الطيبة أن تسوقَكِ من أرنبة أنفكِ . إلاّ أنَّ التاريخَ ليس اختراعا بشريا . أنا على يقينٍ بأنّه كان بإمكانه أن يوجد دون وجود الإنسان، تماما كالزهرة التى تبتسم أو تتألَّم، ورغم ذلك فهى تنمو، وباستطاعتها أن تكون دون بُستانيٍّ.

فضيلة مناضلةُ التّاريخ البائس. أنا أُحيّيها ، أُنادى بها. أرنو إليها عبر نافذة عجزى . أعرفُ جيدا أنّ الخيانة هى خروجٌ عن النّغم . هى طلاقٌ . أنا لا أُطلِّق . لم تعدْ لى القدرة على العيش ، على الحبّ ، ولا حتى على الموت.

اعْتَرِفْ ، دكتور إيدير، أنتَ مُحالٌ على التّقاعد . وأنت لستَ كذلك البطلُ الذى يعى زمانه وزمان غيره والذى انتهى إلى مسيّرٍ أو بائع درّاجات.

"الفضيلات" و"العوامر" وكثيرون كثيرون غيرهم هم الأبطال . هم الذين صاروا أبطالا، أبطالا بلا منازع.

من النور يا دُميتى ، سوف يكون لكِ نصيب !

وأمّا بالنسبة لنا، فعلينا بأن نُحال على التقاعد ، وأن نُغادر بسرعة.

الكلمة الآن للـ"فضيلات".

(٢٦)

النّهار سيطلع بعد ساعاتٍ قليلة . فى الشارع أصوات غريبة تنبعثُ من الأوراق الميتة التى تتكدّسُ فوق بعضها البعض.

حتما السيدة كوست تسهر على زوجها كما أسهرُ الآن ذاتى على ماضيَ، كما تراقبُنى فضيلة التى حزّرت أيًّا من الأفكار التى تسكن ناصيتى تُقصينى أو تعزلُني.

وجرمين ماذا تفعل الآن، أين هى ؟ بمَ تحلم؟ لا أستطيع أن أتصورها عجوزا ، فهى دائما تسكنُ عُمر الذكريات التى لا تنى تتجدَّد ، عُمر القطاف، وفى نفس الوقت شعيراتى لم تعد بيضاء. كتفاى معتدلتان، ونظرى متحررٌ من كل مرارة. الأبطالُ ليسوا وحدهم من يتحدّون الزمن.

مع النهار الذى يُعلن عن ذاته، لم يعُد صوت فضيلة متقطّعا، صار أكثر إنسانية.

ثم استأنفتْ على الفور،ولكن دون غطرسة :

– أضف أنّك لا تقدم خدمة إلى عمر شخصيا...

فات أوان انتهاء هذه اللّيلة.

كم يبلُغُ من العمر الآن ، هذا الولد ، ولد جرمين؟ مِن السّهل حساب ذلك. ست أو سبع عشرة سنة...أهو ولد ؟ أهو بنت؟

وفيم يُفكر ولدُ القارّات الرّاقصة ؟ هل يُشبه والدتَه؟ هل شعره

أصـهب من جـهة الصّـدغين والرقبـة؟... هـل تتذكرُنى جـرمين؟ هل تكلِّمُ مـرآتهـا عنـي،أو صـورةً مـا ؟ الحـافلة فى شـارع "سـيفـر" ، الجادة فى شارع الآباء القديسـين أو الّلقلق فى شارع العرب ؟

أنا لا أُقيمُ بعـيدا عن القطاف. و أنا مـيتٌ رفـقة العنب الذى رفسوه. وأنا كالعنب ، ذكراى اتّزنت وتحسّنت فى عمرها الأخير.

وكالخريف أنا، أتسكّعُ برفقة الأوراق الميتة التى تتكدّسُ فى شوارع المدينة الصغيرة.

(٢٧)

هذا الولدُ الشاب الصغير. لقد تجنَّد. إنه مقاومٌ. لديه الحق في المقاومة . أتصورُهُ أجملُ من الغضب .

***

– فضيلة...أنتِ جدٌّ جميلة . أعطنى شفتيك وكلماتك.
فضيلة محتشمة ، عفيفة ، تخبئ ساقيها خلف الجريدة.
يعتقدُ عمر بأنَّه فهِم كلّ شيء.

***

للأسف انتهى الليل .
والنّهار دخيل !

***

أغارُ من النهار الذى سوف يولّد غيرةً بعيدة عن الخيانة، غيرة قريبة من الصداقة. غنائيتى تتدلى على مشارف الموجة المتعبة ، لم تعد تحاولُ فهم الضّفاف وهى تُمزِقُها . غنائيتى فى طريقها إلى الهلاك . قريبا من الهدف، تنتحر هذه الموجة يائسة. ابن فضيلة هو أملى الأسمى، هو، لن يعاود رؤية ما رأيت، ما عرفت ، والأدهى ما تخيلته.

ابن فضيلة سوف يعرف القطاف .

أولئك الذين لم يُحسنوا المشاركة عليهم أن يستكينوا إلى الاستقالات الأبدية.

إننا نتواجد على الرَّصيف، والقطارات تمرُّ بسرعةٍ مهولة، الأشخاص الذين هم فى مثل سنِّى غير معنيين بالقفز على الدَّرَجَات -فهذا سيكون مستحيلا- ولا بالجرى قبل القطار- سيكون هذا منظرا سخيفا- ولا بإخراج القطار عن مساره - سيكون هذا جُرما- جرمَ تاريخٍ جريح.

على الأقل، بمكوثى على الرَّصيف، فإننى أُحيّى سرعة القطار، وأشعُرُ ببعض المخاوف حين أُفكِّرُ بأن هذه السُّرعة - وجهةَ النّظر ببلوغٍ حتمى للهدف المرجو- سوف تمزِّقُ مع الوقت كل المناظر.

السُّرعة على حق، حتى وإن سببت لى الغثيان.

أنا أغارُ من النهار الذى سوف يولد ككل تلك المواعيد التى لم تحصل ، والتى وجدتنى دوما بعيدا عن أرضها. أنا أغار من هذا الوقت الضائع ، من الخسارة الكُبرى ، من الحلول المتطرِّفة.

ومن جديد، صوْتُ الدكتور كوست يُدندن :

- الجراحة هى حينما لا نجد أيَّ حلٍّ آخر . هى العجز الذى لا بُدَّ منه.

نعم هى العجزِ الضَّروري.

وكذا الحرب.

كنت دائم الإعجاب بالطِّب العام . بطول أناته، بإصراره، بنفاذ بصيرته. قد يحتال على الألم ، يُخادعه ، ولكن باستحقاق. إنه

ديبلوماسى ، يُباشرُ عمله من دون جراحة. ظاهريا على الأقل ، فهو يبدو مهادنا، متقبِّلا لكل شيء . يشمئزُّ من التعنيف. يستعمل الرؤية المستنيرة. ولا يلجأُ إلى المشرط ولا إلى الصَّدمات إلاَّ عند نفاد صبره التقليدى واستهلاكه لكامل الطرق. مهمته الخلاصية هى التوافق.

دوما ، تنتهى الحرب بخسارة ، ولا يمكن لأية عملية مهما كانت ناجحة أن تنتهى دون أثر ودون ندب.

***

عند عتبات الخريف، أجدُنى دون فرحٍ ، ودون مدعاة إلى ذلك. أضِفْ إلى أننى أحتاط من الناس الفرحين. أنا لا أمقتهم، أحتاط فقط . فهم يثيرون قلقى . اعتقدتُ دوما بأنَّ تفاؤلهم هو فى مرتبة الجهل أو التجديف.

لم أفهم أبدا لماذا فى مقدور الإنسان أن يكون سعيدا بالحياة. لأن الموت هو وحده القناعة الخالصة، وهو المؤكد.

صمتي، هو العقد الذى أمضيتُه مع عجزي. وأمَّا الموتى، فإنَّ ذاكرتى ملأى بهم .الشقاء انتهى بأن يُثير غضبى ، إلاّ أننى لم أعد أمتلك القوة التى تسمحُ لى بالثورة.

تُخبرُنى فضيلة بأن ثلاثة إخوة لعمر قضوا فى المعارك. أحيلُ الكلمات إلى معنى آخر: تريدُنى أن أقتل الولد بعد أعمامه الثلاثة.

لا يمكننا أن نتجاوز العبث إلاَّ عن طريق العبث.

– سوف يعبُرُ عمر الحدود ريثما يتمكَّنُ من ذلك. عليك أن تُعينه، باستطاعتكَ أن تساعده...

لو لم أكن قد قرَّرتُ الصّمت ، لكنت قد أَجَبتُ :

– أية فكرة هذه التى يُطلبُ فيها من الخائنِ أن يؤوى مقاتلا؟...

القاموس الحربى محموم . يُبسِّطُ كلَّ شيء. من جهة، هناك الأبطال ومن جهةٍ ثانية هناك الخوَنة. رغم أننى لم أقم بأيٍّ فعل يوحى إلى فضيلة بفكرة تُبلِّغُ عنّى ،أو تحكم عليّ. لست حتى من الفارين ، لأننى بالمعنى المتجسِّد للكلمة التى يطلقُها المناضلون أو المساندون لقضية ما ، لم ألتزم. أنا لا شيء. ولكن بحسب الأزمنة التى نعيشُها، بحسبِ الأزمنة التى لا نعيشُها،عدم الفعل،هو فى حدٍّ ذاته شكلٌ من الخيانة.

تواصل فضيلة كلامها :

– وأمَّا أنا فإنَّنى سوف ألتحقُ بعمر فى بلد محايد...

أحذر ما ستقوله ، وحتما هى تشعر بذلك، فهى تردَّد:

– عموما ، بمجرّد أن أتخلص من...

أرى بأن العبارة كريهة.

أتذكر أننى رأيتُ شريطا تم تصويرُه فى "بورنيو"، عن حياة السّلاحف العملاقة فى المحيط الهندي. على رمال الشّاطئ، كانت سلحفاة تبيض بصورة مجسَّمة. كانت الصورة تعكس وضعا

عسيرا، بالدّموع والإجهاد. ثم ، وبعد أن دفنت السّلحفاة بيضها تحت الرَّمل مفعمة بالتعب وبالخلاص، ها هي ذي تقصد البحرَ ، دون أدنى اكتراثٍ للمستقبل الذى يتهدَّدُ مصير بيضها. هذه الصور أزعجتني.

على الأقل، السُّلحفاة بكت قبل انصرافها .أحببتُ، ولا زلت أُحبّ ألاَّ أرى فى ذلك غير العناء الجسدى فقط. ولذلك فإن كلمات فضيلة لا تعزف فى دماغى اللَّحن الذى كنت أُفضّل.

– عموما ، ريثما أنتهى من...

غالبا ما حدث أن شعرتُ بالعار لكونى رجلا. ولكن نادرا ما كان الأمر كهذا المساء.

***

تمرُ سيارة بنفس اللّحظة التى تأخذ عمرا من الزمن. سيارة "ميشلين" تلوك الليل والصمت. كم أرغبُ فى الذهاب بعيدا. إلى أى مكان، حيث لا أرى إلا وجوها مجهولة تتماثل ثم تغيبُ على وقع المصادفة التى تبدر من المحطات. كم أرغبُ فى أن يكون لى اسما آخر، أن أكون من جنسٍ مغاير،أن أُغير لون ذاكرتى وأوهامى . من يعلم ، فربَّما عند نهاية الطريق، سوف يكون لى الحظُّ بالظَّفر بامرأة تكون فى انتظاري، وأجدها جميلة؟...

كتفاى حينها لن تتحدَّبا...سوف أقفز على الرصيف بنفس عزيمة الشباب الذى يعود.

سوف تخبرنى المرأة :

- كنتُ متأكِّدة بأنك ستأتى يوما ما...

ستكون المحطَّة متمدّدة على بساط من الأزهار والفوانيس. محفوفة بالأكاليل الوردية. ولدٌ صغير مشاغب كالحشرة النفاثة ، سوف ينادى علينا:

- أو و و ى ى ى ه، يا أيها العاشقان، تعالا بسرعة، سيبدأ قطف العنب.

فى هذه المحطة الصغيرة، كنت سأرى فى عينى جرمين كل سعادة العالم.

أشعل سيجارة.

أرغب فى الموت.

(٢٨)

تقترب جرمين من الليل.

ترفع غطاء السماء.

تلج إلى بيتى.

***

لن يكون لليلة أن تنتهى دون أن تتدخل جرمين. بطريقة أو بأخرى، أنا مستدعى من قبل حبى. على أن أتعود على هذه البداهة:

– أنا عجوز، أنا طاعن فى السن، وأنا أحب جرمين قبل كل شىء. حبى هو نفى للزمن.

***

دوما تحضر جرمين لا معنى للحرية فى غياب حبى.

جرمين ليست غيبا، إن لى الحق فى الجنون، لا ! فى التعقل، نعم أو لا ؟ ...

ولدى الحق فى أن أحب.

لقد تعلمت من ندمى . قبل جرمين، كنت منظِّرًا.

***

يروق لى معرفة المذاق الرائع للوحدة حين نجرؤ على الانعزال.

فى مثل سنى لا يمكننا أن نبتعد أكثر من تذللنا. الليل ليس غبيا إلى هذا الحد.

كلّ الأطفال ولدوا من اللّيل.

***

قد يحدثُ أن يستحيل الليل إلى شرير ، إلاَّ أنَّ السماء حينها سوف تتلبَّد.

***

قال لى أحد الشُّعراء: " أمام محكمة الدُوَّارْ، الكلاب سواسية، عربا كانوا أم قبائل، ونباحهم واحد. يصرخون والليل يُسعرهم".

إن اللّيل أقلّ شجاعة من هذا الراعى الذى يترك قطيعه لأجل أن يسوق نجمات أخر، ومن ثمة قطعانا أُخرى.

- إن اللّيل شُجاع.

(٢٩)

مشكلةُ الخَيار، لن تغيِّر من رأيي، فهى لن تستطيع أن تقتلع منى قناعة أننى إنسانٌ فاشلٌ . لا أنتظرُ أية فرحة قد تبدُرُ من المستقبل . بالنسبة لى ، المستقبلُ ليس فرضية، وهو ذو قيمةٍ ماورائية. وهو على هذه الشّاكلة ليس إنسانيا البتة . هو فى حكم الله. أنا أستمدُّ إجابتى من الماضى ، من ماضيَ خاصة. فكرةُ إنقاذ عمر من القمع لن تؤكِّدَ على –حتى وإن كنت أشتركُ فى ذلك دون أن يكون باستطاعتى تقديمَ الدَّليل – توحُّد أفكاره مع أفكارى . هذا الفعل لن يضعنى أمام أى التزام . علينا أن ننتظرَ حدوث شيء ما لكى ندَّعى بأننا منطقيون مع ذواتنا، لكى ننحازَ إلى ذاتنا. أنا لا أنتظر أى شيء لأجلي. وأنتظرُ أشياء كثيرة لأجل الآخرين.

بإعانتي لبطل الشمس هذا ، فأنا أؤكِّدُ على رأفتي أكثر من تأكيدى على التّضامن. فالنابضُ انكسرَ، والحماسة هلكَت. أضفْ إلى أننى بلا حماسة البتّة اليوم . وفى هذه الظروف تكون للرأفة قيمة سالبة. تستحيلُ إلى صدقة. لأنها،وبكل بساطة، ضيَّعت قيمة ودفء الثورات المشتركة.

كم كنت أتمنى أن تكون ابتسامتى خالصةً من كلّ طيبتي، تسامُحى ، وبأن تكون علامة على موافقتى ومشاركتي.

***

الرّابعة فجرا. طلعَ الليل ، استفاق . تحتفظُ الستائر ببرود حنانه. شحوبٌ يكسو وجهَ فضيلة . تتوقّفُ عن التدخين . عن الكلام . تنتظر . ومثلها أنتظر عبورَ الصّمت. وجنتا فضيلة شديدتا البياض. الليلُ أبيض. لقد شخنا مع الليل.

فضيلة والليل سوف يحسنان التزاوج . وها هو ذا الليل، عبر الضوء الذى يحوم حول الدّلب ، يتجدّدُ الليل. وها هى ذى فضيلة تتجدَّد عبر ولَدها. أحسُنى عند نهاية الليل مستعدا للسقوط بعنف فى عدمٍ مجهولٍ بلا نور، بلا قاع، بلا بُعد، وتقريبا بلا معنى. أنا عالقٌ بين اللّيل والنّهار. أنا حاضرٌ لم يعد بمقدوره أن يبدأ أيّ شيء ولا أن يُنهى أى شيء.

هذه الظهيرة ، سوف أصحَبُ الدّكتور كوست إلى مثواه الأخير. آخر صديقٍ لى قضى.

حين سأهلَك ، لن يكون لى حظٌّ فى النوم ببيتي. الموتُ هنا أو هناك ، ما أهمية ذلك ؟ الأهمية بديهية . فنحن نشعر ببرودةٍ أقل حين نموتُ فى بيوتنا. السيّدة كوسْت سوف تضع الأزهار على قبر قرينها .أختٌ أو قريب ما، سوفَ يحضر أمام القبر كل سنة...المدينةُ الصغيرة انتخبت الدكتور كوسْت هذه المرّة. حملَته

فى قلبها كما سوف تحملُه فى أرضـها. سوف تحتفظ بـه. كنائسُها سوف تُخبِرُ الحمائِمَ التى ستحلِّقُ مستغربة ربما، الموكب المهيب.

***

ما تبقَّى لى من حياة فهو ملك لجرمين. باستطاعة الفجر، الصغير أن يَحِيك مرارته . أحبُّ جرمين. الحرب ، السَّلْم ،الإله الطيب أو الشيطان ، أُحبُّ جرمين. الخريفُ، الربيع ، أحبُّ جرمين . حين كنتُ فى الشّهر السادس من عُمري، كنت أُحبّ جرمين . قبل أن أخلق فى هذا الوجود كنت أحبُّها. ما وُجِدتُ إلاّ حين أحببتُها.

وأنا سخيفٌ كمولودٍ جديد.

(٣٠)

الليلُ الأبيضُ يلُفُّ العالمَ . لقد أخطأ البشر فى اختيار الإله الطّيب. أفولُ الحضارة يُقاس بقيمة الهموم التى تشغل بال أطفالها. لا شيء أشدُّ حُزنا من زمن الأبطال.

فضيلة خلَدت إلى النّوم. شعرها منسدلٌ على ابتسامة كئيبة قَدِمَت من بعيد. لا أكادُ أسمع أنفاسَ الأطفال وهم ينامون. كنت قد ضيعت عادة الرنوّ إلى الأطفال. كنت قادرا فقط على رؤيتهم وهم يُصارعون ضراوة الألم متروكين إلى التخدير الاصطناعى الرهيب، أكثر من رؤيتهم وهم يخلدون إلى النّومة الهانئة. أنا من يحاسَبُ على هذا النّعاس. أنا حارسُ شقائها، حارسُ هذا السّلام الذى عاد أخيرا مع وجه ابنتي..

***

لم أتمالك نفسى أمام الغواية. محفظة فضيلة الصغيرة على المكتب تناديني، تحاكينى . فى هذه المحفظة ترقُدُ كراسةٌ، وفى هذه الكراسةِ ترقدُ صورةٌ. الصورة التى أرتنى إياها فضيلة...صورتي. ليس لدى الحقّ فى فتح هذه المحفظة. لأن ابنتى نائمة وأنا بصدد اغتنام هذا النوم فسوف يُعتبَرُ هذا بمثابة إفشاء سرّ، بمثابة خيانة ثقة. نوعٌ من السَّطو مع سبق الإصرار. تبدو أنفاسى رتيبة عبر رؤيتى لهذه المحفظة الخضراء وهذه الكراسة

التى تحتفظُ بصورة شبابى . لا، هذا ليس حبٌّ إطّلاع . أن أرى من جديد إحدى هذه الصور، إحدى هذه الصور التى تعودُ إلى ثلاثين سنة، ، فهو بمثابة حج.

كان لى أن عاودتُ قراءةَ رسائل جرمين ذات يوم. كان هذا أمرا تطلَّب منى الكثيرَ من الشّجاعة. لم أفهم الكثير . بين ماضيَّ وأنا، لا يوجد الزمن فحسب. يوجد ثقبٌ، ثقب لا نستطيع أن نقارنه بالقوسين المجنونين لفقدِ الذّاكرة. الأمر، كان بمثابة قطيعة فعلية ، انشطار. كنتُ أُستعيد القراءة، كما الأحمق، لكلماتٍ كانت موجَّهةً إليّ ، لجملٍ كُتِبَت لأجلى ، كما بإحساسِ محبٍّ شغوفٍ يستولى على رسائل كُتِبت من قبل غريمه.

مذاق الحج يستبقُه شعورٌ أقلّ، لا يعكس رَغبة فى الوفاء، بقدر ما هو شكل ما منِ النوستالجيا. يقول مَثلٌ عربى : اللِّى فات مات"، و هذا المثل على خطأ . مَنْ هذا الذى لم يرغب فى إعادة إطّلاعه على كلماته القديمة؟ فى رؤية نفسه من جديد؟ . فهذا شكلٌ من أشكال المقاومة الممكنة ضدَّ ما هو عصى على الانعكاس.

فى محفظة فضيلة الصغيرة أعلَم بوجود صورةٍ تعود إلى شخصٍ ميت.

أنا.

مزلاجُ المحفظة الصغيرة متعنِّتٌ قليلا. يداي ترتعشان كيَدَى سارقِ مناسباتٍ. لو أنَّ فضيلة تستفيق...

لم أعدْ فى عمرٍ يسمح لى بأن يُقبض عليَّ ويداى مغمستان فى علبة مربّى ..

لحسن حظى ، لم تسمع فضيلة أى شيء . إنها ما زالت تنام وشعرها منسدلٌ على ابتسامتها الحزينة.

أفتحُ الكرّاسة.

كنتُ أنتظر أن يقابلنى خطٌّ مرتبكٌ لطالب جامعى دائما فى عجلة من أمره ، يأخذ ما تيسٍّر له من معلوماتٍ خاصة بالمحاضرة ويشطبُ الكثير منها ويُضيف ويُحيل .على العكس ، إنها النّظام الهادئ والرصين لتلميذة فى المدرسة. نصوصٌ قصيرة منقولة بقلم حبر بنفسجي، بخطوط مسطَّرة بإتقان بشكل يُبيِّنُ بأن صاحبها كان يرتكز على القلم أثناء كتابتها .على الهوامش ، كانت المُدرِّسةُ تعلِّمُ بالقلم الأحمر "لوحِظَ" و"حَسَنَ" و"بإمكانها أحسن"... كانت كرّاسة فضيلة فى الابتدائي.

لم أعد على علم بأنَّ هناك أيام اثنين وثلاثاء وخميس فرحةٌ بمزاولتها لـ"مدرسة الهروب" ، بأنَّ هناك دروسَ حساب، دروسَ أخلاق أكثر بلاهة من الأخلاقيات التى تُدرَّسُ بلغة أجنبية . المطلقيات، المطلقيات فى كل شيء . تعليم المرحلة الأولى لا يسمح للتلامذة بالشكٌّ فى أى شيء.

أتوقَّفُ في" الأربعاء". كان درسَ "تاريخ". أقرأُ الملخَّص الصغير :" كان المُحارِبون المغاربة مقاتلين شرسين وعنيفين ... إلاَّ

أن "رولان" نفخ فى الصور بقوة حتى..."

فضيلتى المسكينة.

أبحثُ عن صورتي. ضجيجُ الصّفحات التى أقلّبُها يُصدر موسيقى أرغن وريحُ نصرٍ واسعة تُسمَعُ فى الغابة المستسلمة البعيدة. أسمعُ وقعَ جياد المحاربين المغاربة الشرسين العنيفين..جرمين تمضى إلى حال سبيلها... والدوالى تسّاقطُ كالثلوج المستضيئة.

" منذُ ألفى سنة، كانت فرنسا تُدعى بلاد"الغال" وسكانها "الغاليين". كان أجدادُنا الغاليُّون، يعيشون تقريبا كالقبائل المتوحِّشة الموجودة اليوم...". جدُّك يا فضيلة ، كان يُدعى سى علي...

أو وِى ى ى ه ه ، أيها العاشقان، ألا ترغبان فى قطف النجوم ؟... الرّطوبة الطّالعة من القنال، لم تكن كافية لكى تشرح لى عاطفة جرمين ...

"هجم الدوق "دومال " على "ازْمالة" الأمير عبد القادر...معركة "أليزيا"، "فرسينجيتوريكس" رمى بسيفه تحت أقدام "يوليوس سيزار" ...

كراسةُ فضيلة تحوى على كل تفاهات العالم البسيطة والعبثية.

"كان المحاربون المغاربة شرسين وعنيفين..."

كـان مـدرِّسى ، حـين كنت أحـضِّـرُ لشـهـادة التـعليم الإبتـدائي، مناصرا شـديدا لفرنسـا. ولأنَّه تجنَّس فقد كان يُنعَت بالـ"امْتُورني" ، وكان متّهما أيضا بعدم الصيام. الحقيقة ، كان ملحِدا ، ولأن الفرصَة لم تواته لتوكيد معتقداته، فقد كان على قناعة تامة بأنَّ الوطن الفـعلى الموحَّـد تحت الراية الفـرنسـيـة ثلاثيـة الألوان هو الوحيد الذى كان باستطاعته أن يطوِّرَ مصيرنا. كان رجلا مُحْتَرما ككلّ الرجال الذين لا يمكن الشك فى إيمانهم. علِمتُ بعد سنوات من هذا بأنه كان مناصـرا شـديدا لمشروع"أبْلوم– فـيوليت"و كان يعتبره مثاله الأعلى. إلاَّ أن هذا لم يمنع فـرصة ردِّ الاعتـبار من التـسلُّل عـبـر سـيـاق برنامج التـدريس،حين درسنا مـرحلة من تاريخنا. تلك المرحلة التى حـرَّكت فيه نوعا من الجرأة الصـارمـة. قال لنا كأطفال:

– ردّاً على البندول الذى استلمه كهدية من السُّلطان، أرسل الملك "شارلومان" هدية تمثلت فى كلاب صيد...

كان يؤكد بشكل خبيث :

– من جـهـة بندول، أول سـاعـاتٍ فى التـاريخ، ومن الجـهـة المقـابلة، كـلابٌ سلق...نعم ، كـلابٌ سلق ! كـلا ، العـرب لم يكونوا برابرة...

أحسَسْنا بقشعريرة ونحن نفتـخر بتلك الكلمات، وكأنما كنَّا نحنُ من صنع تلك السّاعات.

كان انبثاقُ ماضينا العظيم، يُريحُنا وينتقمُ لنا. في الثانية عشرة ، كنَّا على علم تامٍّ ببؤسنا التاريخي.

أخيرا، كانت بعضُ الصفحات البيضاء التى تم "تركُها" فى الكراسة ، تُشيرُ إلى غياب فضيلة عن المدرسة ذلك اليوم بطريقة تسمح بإعادة نسخها فيما بعد . صفحة بيضاء... صفحتان...

فى ذلك اليوم ، كنتُ قد هجرتُ سعدية ، هجرتُ فضيلة ، هجرتُ القرية، هجرت اللَّقلق الذى اعتدتُ على رؤيته ، مضابيحَ "الأستلين" التى أعرفُها ، الحلزون الذى أعرفُه . فى ذلك اليوم ، كنتُ أنوى هجر جرمين ، هجر ماضيَّ. كنتُ أجهل بأن الماضى يعارض الطَّلاق وينتقم داخل ذاكَرتنا.

بين تلك الصفحات البيضاء ، بسُخْرية مريرة، أدلقت فضيلة صورتين، صورتى وصورة شاب... صورتين، لا يفرِّقُ بينهما تاريخ أخذهما، بقدر البياض المرتسم عبر الصفحتين.

لم أشكَّ للحظة بأن الصورة تعود إلى عمر. وأمَّا بالنسبة إلى الأخرى...

لم يخِب ظنى . لعمر عينان صادقتان . إضافةَ إلى أنه يمتلك حظا لا يُقارَن ، لكونه شابا الآن فى هذا الزمن. أحبُّ هذا الفمَ الذى هو بحاجة إلى الكلام وهاتين الشفتين اللتين يُظهِرهما كتحدٍّ.

ظِلٌّ هيكلى يغطِّى الصورتين. طائرةٌ تخترق الصَّمت. الأصوات الأولى تتزلَّجُ على الأرصفة العريضة. المدينة الصغيرة الدائمة النُّعاس تتهيأ للاستيقاظ، وتقرِّر فتح نوافذِها و عيونها.

أُقارنُ بين الصورتين. لن أنسى أبدا، تلك النظرات التى التقت عند مفترق الأجيال.

"كان المحاربون المغاربة شرسين وعنيفين..."

وشاحٌ أندلُسى منسدلٌ على القيثارة ،أرغن مسوَد، شعيرُ أسودَ قمحٌ صلب، قمحٌ ليِّن ، كؤوس مثلَّجِ عصيرِ اللَّيمون الصغيرة ، شارعُ العرب ، ابتسامة صديقى ، مجاملة حبّ بحر بلادي، يا الله ، يا الله ، كم من "طرزان"، وكم من "زورو" فى شارع العرب ، يا الله ، هذه الزيتونة التى تنتظر حمائمها...

***

أعدتُ الصّورتين إلى الكراسة ، والكراسةَ إلى المحفظة.

كانت فضيلة ترنو إليَّ بعينى يومِ "أربعاء"، يوم درس التاريخ. كانت قد رأتْ كلَّ شيء. لم يتَّسع وقتى لتأليف موقف. تلك الطائرة ، منذُ لحظة ، هل أحدثت كثيرا من الضَّجيج ؟ هل أحدثتْ ضجيجا يتجاوز نغمة مزلاج المحفظة الصغيرة الذى تعنَّت معي؟

هل أحدث قلبُ سارق المناسبات ضجيجا إلى هذا الحدّ؟

رغم ذلك، فقد سمعتُ فضيلة تخاطِبُني:

– كلاكُما جميل.

أعتَقدُ بأنّها كانت تُمثِّلُ دور النائمة.

ولكنَّنى أعتقد خاصة، بأننى سوف أكون دائما فى عمر من يفاجأ بيدين مغمَّستين فى علبة مربىً...

(٣١)

صارَ من العبث اليوم أن تكون السَّماءُ أكثر زُرقةً . سماء " الجنوب" هذه ، التى تلتصق بشجرِ الدلب، التى تشدُّها سحابةٌ إليها لِكى تؤازِرَها والتى يحاول جاهدا ناقوسُ الشك ثقبَها ، صار من المستحيل عليها أن تكون أكثر زرقةً. بعدَ الظَّهيرةِ ، الربيع الذى يستنكف عن نُصح المدينة، سيتجوَّلُ فوق السطوح أو ينزل عبر الشوارع الحلزونية لكى يستحمَّ بالشّمس التى سمحَ بها هو ذاته. عساكر يعُدّون خطواتهم المائة. يرتدون فوق رؤوسهم مراكب مقلوبة. سطوح المقاهى لا تكترث لكؤوس اللَّموناضة التى تجمَّدت. سائحٌ يأخذ صورَ نافورة وكأنما لم توجد نافورة فى بلاده من قبل، فى مدينته، فى قريته، فى وطنه. شريط الصُّورِ ، هو ذاكرةُ الحمقى.

هناك دوما كلبٌ يتساءل عن وجوده فى هذه الأرض . هناك دوما كلب ، وهو دائما ، إمَّا يتيم أو لقيط.

هناك الشيوخ الذين تغنَّى بهم شاعرٌ. جالسون على مقاعد. صِهرٌ سيأتى لاصطحابهم ذات مساء. حينها، سوف نتمكَّنُ من رؤيتهم وهم يفكّون صدأ مفاصلهم، وينغمرون فى الشوارع. الفرنسيون الذين يتجاوزون العقد السّابع ، يحصلون كلهم على

نياشين. أيُّ هذا التكريم الذى يسبق الموت والذى يحثُّ المجتمع على منحهم لقبا يسمحُ لهم بالموت فى حالة رحمة مدنية ، ويختم حياتهم بشهادة حُسْنِ سيرة تستخرج من الضاحية ؟...

بعد ساعاتِ منع التَّجوالِ الذى يبدر فى العيون المنطفئة لفرنسيات المدينة الصغيرة، ستخرج هؤلاء النساء وقد اكتسين ألبسةً سوداء. هل هنَّ أراملُ إذ يرتدين عزاء الصَبيَّة التى تستعيد ساحة عِـزَّةِ صدرها وقدِّها؟. كنَّ تلك الصَبايا.

عند مدخل ساحة قصرِ العدالة، ساعةُ الحائطِ لا زالت دائمة التأخر.

"بورطاليس"الذى نخر الجُدَرى و"ريح الجنوب " أنفه ، يرنو عبر الكاتدرائية إلى الحَمَام، الحمام الذى سئم يوم الأحد. خلف قصر العدالة ، هناك السّجن. سجنٌ مسرحيٌّ يعادُ دَهنُه كل سنة.

إنها مدينة لا يحقُّ لها أن تؤسِّس مقبرة. لا يحقُّ لها أن تؤسِّس قصر محكمة وسجن. لاحظتُ بأنَّ الحمائم لا تُغامر أبدا بالاقتراب من قصر العدالة ولا من السّجن. ولا حتى أيام السوق حيث يكون الزوار كرماء. إنها تُحبِّذ الكنائس ... بكروشها الكبيرة ، بهيئاتها الشبيهة بالمستشار العام وعيونها الحذرة... الحمائم ليست ثائرة...

***

أمشى كمن يمشى فى نومه. أيعقل أن أُمشى خلف عربة موت صديقى ؟ على الأرصفة تافهون يرسمون علامة الصّليب. وعلى أكتاف والده، كان ولدُ صغيرُ يُصفِّق.ربما، كان منظر الخيول هو الذى يُغبطِهُ. مررنا أمام الحانات والدكاكين ومحال الحلوى.

مررنا وسَط الحياة . صفحةُ تُقلَبُ. أنا أيضا من سوف يُدفن...

حينما غادرتُ بيتى ، خلَدَتْ فضيلةُ إلى النوم من جديد. نقلتُها إلى الأريكة. لم أكن أعلم بأننى لا زلت أمتلك جهدا مماثلاً. ثم قصدت المستشفى، قبل أن أُصرِّح فى صمت بألمى إلى السيدة كوست.

تجعيدُ كان محفورا فى شكل علامة استفهام على جبهة الدكتور كوست. وكنتُ أشعُرُ بأنّ بسمةً كانت تتلهّى على زاوية من الشفتين . شعرتُ للحظة بأنه كان سيُكلِّمُنا. ربما كان فعلا يُكلِّمُنا...لم أعد على يقين من أى شيء.

هل كنتُ محقا حين عزفتُ عن تلبية رغبة فضيلة؟ أين هو الخير، أين هو الخطأ ، بما أن الموت سوف ينتهى فى الأخير بأن يجمع بين هذين الحدَّين بعنفٍ شديد؟...هل أنا مُلزمٌ بمنح العون إلى عمر؟.

ليست هذه حالة وعى تواجِهُنى . منح العون إلى عمر، لا يعنى

خيارا. الحياة ليست فكرة، ليست هى المثالية، وأنا ، أريد أن أختار الحياة . أريد أن أكون حيا ، أو ميتا لكن بشرط ،أن أُتقِن البسمة مثل الدكتور كوست.

***

المقبرة بعيدة نوعا ما عن المدينة الصغيرة. الطريقُ الوطنى رقم سبعة يمرُّ عبر مزرعة عنب. الدوالى متراصةٌ بشكل منظَّم. إننا نعبُر الحياة . إلا أنَّ الخريفَ أبْدَى احترامه للدكتور كوست. نصرٌ خفى . الأولاد مندهشون . الحقول صمتت . سوف تعود إلى حياتها بعد هنيهة.

من المؤكدَّ أننى أُجدف. الدكتور كوست، جرمين، فضيلة، عمر، فى الحقيقة ، الأمر يتعلَّق بى خاصة. ألستُ بصدد حضور جنازتي ذاتها؟ ألم أُمض كامل حياتى فى القَبرِ؟ فى قبر نفسى منذُ أولى القطاف التى ألقيتُ عليها التحية، منذ الرُّطوبة الطّالعة من القنال وتلك النجوم التى حاولت أن أحصُدَها؟...

يا إلهى كم هى على خطأ تلك العبارة الرَّاسخة التى تَدَّعِّى :

– أننا لا نموت إلا مرةً واحدة...

***

بما أننى لم أكن فى الصّف الأول، فإننى لم أتمكن من سماع كلام القسيس وخطبه.كنت أعلم فقط ،بأن صفحةً انطوت.

هدوء هذه الأماكن يبعث فيَ الطمأنينة. بمعنى أدق، فإنه لا مكان يبعث على الأمان مثل المقبرة. لأن الأموات وحدهم،من ينصرفون إلى حالهم.

كنت دائما حسّاسا تجاه الأعشاب الصغيرة، التى تهتز عند عتبة القبر،تجاه شجر الدّلب الذى رسمَتْهُ الأبديّة التى يحسِنُها، ثم يعتقها، تجاه إهداءاَت الأحياء المنقوشة على الحجر الكبير كأغلفة تلك الروايات التى لا يُظهر فيها مؤلفوها إلا بعض الإشارات الشخصية المعتمة.

هنا،كل المشاكل تكتسى غشاوة الصمت.

***

لن أمضى إلى مصافحة الأيدي، استعراضُ شهود القدر واسترجاع كلماتٍ لا تتقن العزف، كتلك الأجراس التى تُقرع تحت سماء العيون الزرقاء.

الحصا يُبقى على آثار المواعيد، تحيَّاتٌ سامية وركُبٌ تريد أن تنتقم عبر أيادٍ مرتفعة إلى الله.

لماذا يغيبُ القّلقُ ومصابيحُ الأستيلين عن المدينة الصغيرة؟...

***

سوف أزورُ السيدة كوست هذا المساء . تلزمُنى شجاعةٌ أقلّ من الحزن.

ثم ، إننى لا أعلم . لم أعد أعلم شيئا...

(٣٢)

كان السلَّم العريض يوحى بالرَّحيل، دون عبق الفوضى والتعب المعهودين .

لم تكن السيدة كوست هى التى فتحت الباب، بل الممرضةً.

كانت العتمة مكدَّسة فى الغرف. الستائر المشدودة كانت تصدُّ النهار وتوقفُ الليل...

كانت غرفة الانتظار شاغرة. الدكتور كوست علَّق مواعيدَهُ.

***

هل سأتصفَّحُ مجلَّةً قديمة متمثِّلا دور المريض الذى لا يعى حقا موضعَ الألم ؟

الصمتُ عارمٌ . البيت ميتٌ كصاحبه.

رغم ذلك فإنَّ صاحبَهُ لا يزال يبتسمُ على الجُدران محاطا بزملائه الدَّاخليين. بتلك البسمة التى لا تحدِثُ ضجيجا. التى لم تحدِث ضجيجا من قبل.

غريبٌ، أنا لن أعتادَ أبدا على التفكير فى الأشياء غير المكتملة.

***

أطلتُ الانتظارَ فى الصـالون . منذُ قـرون، منذ الأبد. لا أجـرؤ على التدخين. لا أجرؤ على فتح المجلات.

رَحَل الدكتور كوست. جئت لكى أودّع أرملته وصورته وسط الداخليين.

للموت مذاق التديُّن.

***

– بإمكانكَ أنْ تدخُل ...

لم يتعكَّـر الصّمت. كان لا بُدَّ من هذا التدخُّل لكى أُقتَلَعَ من هذا الوقت ، من التأمُّل فى هذا الوقت...

كان الصّوت مُجهدا ، إلا أنه كان صارما.

استقبلتنى السيدة كوست بتأثُّر عميق كانت تُحاول أن تُخفيه. عميقةٌ، حزينة بنوعٍ من الصرامة التى تشكَّلت داخل قالب من العزة. لا شيء يوحى بالاضطراب والكآبة.

أقوم ، ثقيلا ، خجِلا ,أسيرُ خلفها إلى صالونٍ آخر. هذه السّاعة الحائطية القديمة التى تستقبِلُنى لن تتوقَّف أبدا، سوف تظلُّ تُدهِشُ الصّمت بحضورها و خلودها.

عتمة ثقيلة تزعِجُنى . إنها تحُدُّ من أفكاري.

أنا سجين العتمة.

بكل بساطة ، سحبتْ السيدةُ كوسْت السّتائر . انسلَّ النور بشكل خجول. وبدَت السّماء بلونٍ وردي.

في زاوية ترتكز على صوانٍ ريفى قديم، كان هناك شابٌ يافعٌ تعرّفتُ عليه مباشرة.

قلتُ له :

– تعال أيها الصغير، فضيلة فى انتظارنا.

العملية الأخيرة التى قام بها الدكتور كوسْت ، كانت ناجحة.

أيكس أن بروفينس

باريس – مارس ١٩٦٠

انتهت الترجمة : بسكرة/الجزائر فى ٢٥ يناير٢٠٠٧.

المؤلف فى سطور

"لا تطرقوا بشدّة. لم أعد أقيم هنا". هذا هو مالك حداد. بابٌ من المعنى أغلق تأويله على ذاته، واكتفى بالحلم. بالحلم بأن يقرأه أهله باللغة التى حُرموا منها، موشّاة بحلى الحضارة التى طمسها أهل المُحرّر فولتير. كان ينادى مع مصطفى كاتب، بأنه استطاع التحرر من ضيم نابليون، ولكنه لم يستطع التحرر من فولتير. كاتبٌ يبحث عن حضارة، ويعلم جيدا أن أكبر مشروع زرعته فرنسا فى مستعمراتها هو مشروع حضارة مشوّهة. أحرق جسده وفلسفته كلها فى هذا الوجود المعرفى التليد. رقص على صهوتى جوادين بجسد واحد. كتابة جزائرية بروح فولتير. فرحٌ بلون الألم، وألم بلون الألم.

ولد فى جويليه (يوليو) ١٩٢٧، وتوفى إثر مرض عضال فى جوان (يونيو) ١٩٧٨, كان لا يحب أنصاف "الأشياء"، ولذلك قتله استقلال بلاده التى رهن إبداعه من أجلها بأن كفّ عن الكتابة باللغة الفرنسية التى يحبها، فوجد سياستها أصغر من التزامه. قتله الصمت قبل أن يقتله السرطان:

المترجم: شرف الدين شكرى

ولد عام ١٩٧٢ ، نال ماجستير علم اجتماع التربية، جامعة بسكرة، الجزائر. كتب الرواية والقصة والترجمة والفلسفة.

– الهوامش الكونية ج١/ط١ (تأملات فى حياة معدمة) مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠٠٨ط٢، دار ميم للنشر والتوزيع، الجزائر ٢٠١٤ .

– سفرة المنتهى (مجموعة قصصية) منشورات آرتيستيك، الجزائر ٢٠٠٩ .

– الحياة هى دائماً موت أحد ما (دراسة اركيولوجية حول أعمال الأديب مالك حداد). دار أسامة للنشر، الجزائر ٢٠٠٩، ط ١، ط٢: ٢٠١٣ .

– جبل نابليون الحزين (رواية) (دار فسيرا للنشر والتوزيع، ط١، الجزائر ٢٠١٠، ط٢، ٢٠١٣).

– عام جديد بلون الكرز (شذرات من الأعمال الشعرية الكاملة لمالك حداد)، مجلة الدوحة القطرية ٢٠١٤ .

– الهوامش الكونية ج٢ (لا أنتظر غودو)، دار ميم للنشر والتوزيع (٢٠١٤).

هذه الرواية

لحظة نهـاية الدكتـور كـوست قـرُبت. لحظة ولادة فـضـيلة اقـتـربت.شكوكٌ كـبـيرة تنتـاب الدكتـور إدير صـلاح، الذى يمتطى صهوتين. حضـارتان تربضـان أمام الباب. نهاية حياة قديمة يعسر التـخلّص منهـا، لما بهـا من ألم وفـرح وخطا رأس صـلاح، ووجب التخلّص منهمـا حتى يطلع بذار الحيـاة الجديدة من نسغ سلالتـه المحرّم.

كـان الدكتـور كوست صـديقا عليه أن يكفّ عن المجيء. حملُ فضيلة؛ حريةٌ قدمت من التحدّى ومن الحاضر الذى يخشى أن يفتح دهاليزه. وحتى غبطة الحبّ الوحيد الذى منحه معنى لحياته الواهمة ظلّ عالقا بسماء الذاكرة التى جعلت من الرجل حقيبة ضياع حملت كل صنوف الأسئلة الفلسفية التى تختزل وجود مالك حداد ذاته، دون أن تجد لها إجابة.

رقم الإيداع
2014/ 16464
الترقيم الدولى
978/977/07/16663

روايات مصرية للجيب

إنها بالفعل شيء ملائكي رائع

تذوّق متعة القراءة مع
أحلى القصص، وأجمل الروايات

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10، 16 ش كامل صدقي الفجالة،
4 ش الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة - ت: 22586197 - 24677371 - 24677138
فاكس - 202/24677188 ج.م.ع، 4 ش بدوي محرم بك - الاسكندرية ت: 03/4970840 - 03/4970850